الطريق إلى السعادة

د. هنري لنك

تقديم وترجمة

ثروت محمود

الكتاب: الطريق إلى السعادة

الكاتب: د. هنري لنك

تقديم وترجمة : ثروت محمود

الطبعة: ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

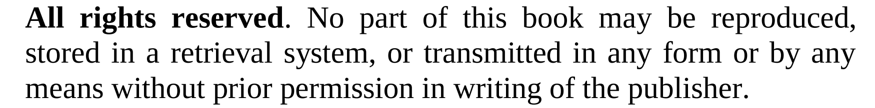
جمهورية مصر العربية



هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com



دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

لنك ، د. هنري

الطريق إلى السعادة / د. هنري لنك

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٧٥ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٨ – ٧٢٤ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٧٣١٩ / ٢٠١٨

الطريق إلى السعادة





مقدمة

الدكتور هنري لنك هو أحد رجال علم النفس التجريبي المشهورين، وكان لتجاربه العديدة ودراسته الواسعة في ميدان علم النفس أثر كبير في اخراجه كتابه "العودة إلى الدين" الذي نحن بصدده الآن، والذي آثرت أن أدعوه "الطريق إلى السعادة" لما في هذا العنوان من مطابقة فعلية على موضوعات الكتاب، وقد لقي هذا الكتاب نجاحاً منقطع النظير حتى قدر عدد قرائه في أوروبا وأمريكا بالملايين.

ورغم أن الدكتور لنك من أشهر رجال السيكولوجيا العلمية إلا أنه يصر على أنه ليس بكاتب، فهو لا يؤلف إلا في أوقات فراغه أي خلال تلك الأمسيات والعطلات التي يقضيها بعيداً عن عمله اليومي كطبيب نفساني. وعندما تحصل على درجة الدكتوراه في علم النفس بعد تخرجه من جامعة ييل بأمريكا عام ١٩١٦ عرض عليه منصب التدريس في الجامعة، غير أنه آثر التفرغ لأبحاثه ودراساته لحالة الألوف من الناس، تلك الدراسات والأبحاث التي أنفق فيها خمسة عشر عاماً ختمها بإخراجه من الكتاب.

ولما كان الدكتور لنك يجمع بين ميداني علم نفس الجماعة وعلم نفس الأفراد كانت لآرائه العظيمة عن الدين وعلم النفس أثر بالغ.

وإن نظرة إلى الوراء منذ بدء الخليقة إلى أيامنا هذه، لترينا إلى أي حد بدأ الإنسان ضعيفاً ثم تطور حتى استطاع أن يسخر كل شيء بإرادته ومطالبه؛ فقد خلق الله الإنسان وزوده بقوة عظمى هي قوة العقل، حتى يتمكن بواسطته من التمتع بحياة طيبة في ملكوته المعقد الذي أوجده فيه. غير أن قوى البشر لا بد وأن تصطدم ببعضها، فتطغى أحداها على الأخرى، وفي ذلك فساد الدنيا وإفساد للحياة، فأوجد فيه النفس خاضعة لإرادته، مسترهبة لسطوته، راغبة في نعمه، طامعة في خيراته. تلك الرغبة والرهبة هي الخضوع المطلق لذاته العالية، وذلك الخضوع هو الدين الذي هو جوهر الكتاب ولب موضوعه، فالدين عماد الحياة ومحورها الذي تدور حوله، والإنسان بلا دين لن تدخل الطمأنينة إلى قلبه ولم يقر له قرار. ومن هنا تنتابه الاضطرابات والهواجس وسيرى القارئ أن الدين عند المؤلف ليس ملجأ الضعفاء، ولكنه سلاح الأقوياء، فهو وسيلة الحياة الباسلة التي تنهض بالإنسان ليصير سيد بيئة لا فريستها وعبدها الخانع.

ولما كان للدين أثر عظيم على سلوك البشر وأعمالهم وتصرفاتهم فقد لجأ المؤلف إلى الأخ القارئ بالتدريج إلى مختلف نواحي الحياة الشخصية والاجتماعية والعلمية والعملية ليدلل على مبلغ ما يسببه ضعف العقيدة الدينية من الفساد والفوضى، وليبرهن على أن التمسك بالدين يسمو بالنفس البشرية ويفسح أمامها المجال كي تعبر عن نفسها وتنتج خير ما عندها.

ولقد حرصت على أن أنقل الكتاب لقراء العربية دون أي تغيير في جوهر الموضوع، وإن كنت قد وجدت نفسي مسوقاً في بعض الأحيان إلى الإيجاز في بعض المواضع، والتصرف إزاء بعض المواقف مدفوعاً إلى ذلك برغبتي الصادقة في التقريب بين وجهات النظر، أعني في عقلية المؤلف الغربي وعقلية القارئ العربي.

وإن للكتاب روحاً خاصة يأمل المؤلف والمترجم أن يدركها القارئ ويتقمصها، ويمنحها الفرصة كي تسمو به وتدفعه إلى سبيل الخير، خير نفسه وخير البشرية والعالم أجمع

ثروت محمود

عودتي إلى الدين

"إن شئتم أن تعرفوا ربكم فلا تعنوا بحل الأحاجي والألغاز، بل تأملوا فيما حولكم تجدوه لاعباً مع أولادكم، وارفعوا أنظاركم إلى الفضاء الوسيع تبصروه يمشي في السحاب ويبسط ذراعيه في البرق، وينزل إلى الأرض مع الأمطار. تأملوا جيداً تروا ربكم يبتسم بثغور الأزهار، ثم ينهض ويحرك يديه بالأشجار.."

جبران

أرجو ألا يظن القارئ أني أترجم له حياتي الخاصة في تلك الصفحات، فحقيقة هذا الكتاب أنه موجز لتراجم الآلاف ممن ساقتهم الظروف إلى التردد عليّ لمعالجتهم، وسأروي هنا قصة هذه الفئة وهي تحاول أن تتلمس حقائق الحياة وسط هذا العالم الصاخب المضطرب، متطلعة إلى أساس راسخ متين تشيد فوقه صرح سعادتها وهنائها.

وما كانت عودتي إلى الدين شيئاً مهماً في حد ذاتها، إنما هو تصويري لتلك الطائفة في نضالها وقنوطها وفوزها، هو الذي قد يكون له أثر عظيم، ذلك التصوير الذي قام على مكتشفات علم النفس، التي لم يتيسر بعد لسواد الشعب الوقوف على حقائقها.

وهآنذا أسجل أن عودتي إلى حظيرة الدين لم تكن وليدة الضائقة المالية التي اكتسحت العالم وقتاً ما، ولو أني أعترف مع ذلك بأن تلك الفترة قد ساعدت على نضوج بعض الحقائق النافعة لي. وما كان تقدم سني أو اقترابي من الشيخوخة – هذان الشبحان اللذان غالباً ما يؤثران على تفكير المرء – هما السبب في عودتي إلى حظيرة الإيمان، فإني ما زلت في مستهل الخامسة والأربعين وهي سن تعتبر مبكرة نوعاً ما، ومازلت بحمد الله موفور الصحة قوي البنية قادراً على الانحناء عشر مرات متواليات، وسباحة ميل كامل، والتهام كل ما أشتهي من طعام دون خشية أية عواقب؛ فعودتي إلى الدين لا ترجع إلى تدهور صحتي ولا إلى ما عساه أن أكون قاسيته من الآلام التي تؤثر على عقلية المريض، فتجرفه في تيار التمني للتخلص من هذه الحياة والإخلاد لحياة أخرى كلها راحة واطمئنان. كما أني أقرر أنها لم تأت في أعقاب مصيبة أو كارثة من كوارث الحياة ومشاكلها، بل بالعكس جاءت بعد أن قضيت ستة عشر عاماً في حياة زوجية هانئة، فأنا رجل محظوظ لي ثلاثة أطفال هم مصدر سروري وغبطتي، وحزت من النجاح أكثر مما كنت أصبو إليه. أما إيرادي فيربو على حاجتي ومطالب أسرتي.

ومن هذا ترى أن هداي لم تصطحبه أية حبكة روائية أو إثارة ما لعواطفي، فلم أمر بتجربة قاسية، ولم تحرك إحساسي كارثة، كما لم يبهر بصري اكتشاف جديد قد يحدث هذا التبدل الذي أسجله الآن.

لقد أتاني الهدى وئيدا حتى إنني لم أتبينه في نفسي خلال مراحله الأولى، وما كان مرجع هذا التبدل إلا تلك التجارب المتواصلة التي صادفتني أثناء ممارستي لمهنتي كطبيب نفساني.

وقد توفر لي بحكم مهنتي هذه خلال الخمسة عشر عاماً السابقة، أن اختبر وأقدم النصح لحوالي أربعة آلاف نفسا من الشباب والكهول والأغنياء والفقراء والفتيان والفتيات، وكانوا جميعهم – إلا الشاذ النادر– ذوي مشاكل عادية، كتلك التي تصادفنا كل يوم، فمنهم من لم يستطب أسلوب حياته ومعيشته فركن إلى الخمول أو حاول تغييرها، ومنهم من كان يشكو بؤس حياته الزوجية أو كان يسعى إلى الطلاق، ومنهم من كان يجد مشقة في الاختلاط بالناس وكسب الأصدقاء، أو كان يقاسي الكثير من الخجل والحياء، ومنهم من كان يحاول أن يجد حلاً للمشاكل التي تعترض تربية أطفاله وتعليمهم أو التي تبرزها عاداتهم، وكان منهم أيضاً من يعاني صراعاً عنيفاً بين عقائده الدينية وتجاربه الدنيوية، أو بين التزاماته نحو أبويه ونحو نفيه، ومنهم من كان يرزح تحت بعص العادات القبيحة ويد الخلاص منها. وجملة القول كانت مشاكلهم جميعاً عادية، ويمكن علاجها بواسطة أصول علم النفس، فهي بعيدة كل البعد عن الأمراض النفسية، التي لا تتيسر معالجتها إلا بواسطة طب الأمراض العقلية في المصحات العقلية، أعني استخدام علم النفس الشاذ أو المرضى.

وسرعان ما وجدت نفسي بعد دراسة مشاكل هؤلاء الناس أستعين – إبان نصحي لهم – من وقت لآخر ببعض آيات الكتاب المقدس ونصوصه، وأميل إلى توصيتهم باتباع بعض العقائد المعقولة، ولم أنسق في تيار هذا الميل الذي أخذ في النضوج إلا حين أدركت عجز المعلومات النفسية والعلمية عن تقديم النصيحة اللازمة كاملة في كل الأحوال، فما هي بالحاسمة، ولا هي بالكافية لسد حاجات أولئك الذين سعوا إليَّ باغين النصح والإرشاد.

وما حاولت مرة أن أعبر عن بعض الحقائق العلمية أو شبه العلمية لزيد من الناس إلا واستعنت بهذه الطريقة، فأشرت عليه باتباع سنة خلقية حميدة تمتاز ببساطتها. ولما تعددت أوجه الشبه بين هذه السنن الخلقية الوضعية والتعاليم الدينية تبلبل فكري وتأثرت ميوله، وبمرور الزمن وجدتني قد تشبعت بعدد لا حصر له من التعاليم الدينية التي كنت قد لفظتها بنفسي منذ أكثر من عشرين عاماً.

إنني لم أتردد على محل العبادة أكثر من عشرين مرة في مدى العشرين عاماً السالفة، إلا أنني لاحظت أني أشير على مرضاي من وقت لآخر ببذل نشاطهم في معاونة الكنيسة والاشتراك في أي جمعية دينية على غرار جمعية الشبان المسيحية. وقد حضرت إليَّ مرة سيدة شابة كانت كل مشكلتها أنها ترغب في بدء حياة جديدة بعيداً عن مسقط رأسها واحتراف مهنة تقوم بأودها. وقد نجحت فعلاً في تحقيق رغبتها بعد أن تم اكتشاف نواح معينة من ميولها ولياقتها بواسطة بعض

الاختبارات النفسية، ولكنها عادت بعد ستة شهور لاستشارتي فقالت: "إني ما زلت أجد صعوبة في معاملة الناس وخصوصاً الرجال منهم، وأخشى أن أكون مصابة ببعض العقد النفسية التي تحول دون اكتسابي هذه العادة، فهل من الممكن إزالة هذه العقدة؟" وعندما شخصت حالتها وجدت أنه ليس هناك أية عقبة لتحقيق رغباتها، فمشكلتها الكبرى في الواقع تنحصر في أنها كانت تعيش لنفسها، فتفكيرها ونشاطها كانا يدوران حول ذاتها فحسب.

كانت تفتقر إلى عادات معينة، وكفايات خاصة، لن تكتسب بالتحليل النفسي أو بالتأمل الباطني، إنما بالمحاولة المتواصلة والمران الدائم. ولذا لوصيتها بعدة أمور كأن تلتحق بكنيسة ما، وأن تنتهز كل فرصة لتقوم بنشاط فعال في سبيلها بعد أن تلقي نفسها في خضم العمل في سبيل الغير، ولا يفوتني أنها اعترفت لي ضمناً أن إيمانها صادق، وأنها أحد أعضاء كنيسة بلدتها، ولكنها سألتني متعجبة: "أليس من الخسة الانضمام إلى الكنيسة لمجرد تهذيب نفسي لأكون سيدة اجتماعية؟"

فلم أجد مفراً من تفسير الأهمية النفسية للأديان متخذاً نشاط الأنبياء الاجتماعي الواسع، وحث الأديان للناس على إنكار الذات في سبيل الغير مثلاً على ذلك. وقد ناسب هذا التفسير حالتها، إذ أن ادراكها الديني لم يكن قد تعدى الإيمان ببضع عقائد، ولم تجد في حياتها من يرشدها إلى فضيلة إنكار الذات وإيثار الغير، ولا من يعلمها

أن طمأنينة النفس وهدوءها لا يأتيان إلا إذا قام المرء بعمل نافع للمجتمع، أو أدى خدمة للغير أثناء الخوض في معمعة الحياة.

وفي هذه الحادثة بالذات وجدت نفسي- أنا الملحد المنكر للبعث الكافر بالله – أتحمس بشدة مدافعاً عن مبدأ الاتجاه الديني في الحياة.

أخذت مثل هذه الحوادث – التي سأروي بعضها فيما بعد – تدفعني خطوة أخرى، حتى اقتنعت تماماً بأن كل مكتشفات علم النفس لتقويم الشخصية والوصول إلى سعادة النفس ورضاها تنتهي إلى التمسك بالحقائق الدينية القديمة والتعلق بها.

وكما جرفني العلم قديماً بعيداً عن الدين، كانت عودتي إليه أيضاً عن طريقه هو، ومن هنا كان وجه التناقض.

كنت عندما التحقت بالجامعة ورعاً تقياً، فأنا مولع بديني منذ نعومة أظفاري، أتأثر بتعاليمه وأواظب على مناسكه ولا أتخلف عن مواقيت الصلاة، ولا أتوانى عن تقديم كل معونة في سبيله حتى بلغ بي الأمر أن صرت ألقي دروساً دينية، وبمعنى أخر كنت شاباً متدينًا متطرفًا، قد تناول جرعة دينية بالغة القوة.

وقد اشتهرت الكلية التي التحقت بها بأن ثمانين في المائة من خريجيها يلتحقون عادة بالوظائف الدينية. ولقد لمست فيها شدة النشاط

الديني وعنفه، ولما كنت شغوفاً بالعلم والمعرفة والبحث عن الحقيقة شعرت أن الجو العقلي السائد هناك خانق. ومما زاد الطين بلة انتشار فضيحة العلاقة الغرامية بين عميد الكلية ورئيسة الراهبات، فأججت هذه القصة كثيراً من الشكوك التي كانت تنتاب ذهني المكدود، فالتحقت في السنة التالية بكلية أخرى من كبريات الكليات في شرق أميركا، حيث بدأت بدراسة تاريخ الفلسفة والتربية الدينية. أما تاريخ الفلسفة فهو قصة تحرر العقل البشري من الخرافات والأوهام الدينية المضللة، وقد لازم ميلاد العلوم وظهورها استشهاد تلك الجمهرة من العلماء التي اجترأت فتطاولت على الكنيسة مسفهة عقائدها، وقد روعيت في هذه الدراسة تمجيد طريقة ربط الأسباب بالمسببات(١) فكل ما حدث ما هو إلا حلقة من سلسلة الأسباب والمسببات التي لا تنقطع بعكس الميل السائد لدى كبار رجال الكنيسة الأولى أمثال طرطوليان(٢) الذي قال "لا بد لي من الإيمان بتعاليم الكنيسة رغم سخافتها"، فأظهرت هذه الدراسة التناقض بين زهد المسيحيين الأولين وإنكارهم لسرمدية هذه الحياة، وبين إلحاد الإغريق وإغراقهم في إشباع شهواتهم وتحقيق مبدأ اللذة والامتناع، وأظهرت كيف تطورت الطقوس الدينية والنظريات والمذاهب الكنسية تبعاً لمجريات القوى السياسية، وظهور الشعوب واحتفائها. كما أسهبت في وصف أثر كل من علوم الطبيعة والكيمياء والأحياء وطبقات الأرض، الواحد تلو الآخر في تنوير الأذهان، وتبديد الأوهام، فأزاحت الستار عن مغالطة العقائد الدينية وسفسطتها.

---

(١) قال تعالى في كتابه الحكيم (وجعلنا له من كل شيء سبباً فأتبع سبباً).
(٢) Tertullian.

لذلك كان هذا الشوط من الدراسة هو أمتع وأبهر ما تلقيت، وأعظمها تأثيراً علي، لأنه كان الجواب الكامل على تلك الشكوك الدينية المختلفة التي ساورتني من قبل، ولم أهتد إلى حل لها يقنعني، فخرجت من ذلك كله باحترام عميق لقوة التسبيب، ولمكتشفات العلم الحديث، أما عقيدتي الدينية فهوت لما لم تجد ما تستند عليه، ولما لم تصادف من يتلقفها.

وفي العام الدراسي نفسه درست التربية الدينية، وكانت هذه الدراسة عرضاً تاريخياً للتطور الذي حل بالكتاب المقدس، فعرفنا الطريقة الفاسدة التي اكتمل بها هذا الكتاب، ولمسنا في الأسفار التي درسناها الدلائل القاطعة على أن رجال الدين الواحد تلو الآخر، أخذوا يعبثون في الكتاب فيعيدون كتابة بعض أجزائه مضيفين إليه ما يعن لهم، ولذلك قسمت محتويات "العهد الجديد" إلى ثلاث أقسام متساوية: تلك المقطوع بصدقها أي جاءت عن لسان المسيح، وتلك المشكوك فيها، وتلك التي زيفت على من الأيام.

فكانت هذه الدراسة، التي جعلت كل ما سبق أن اعتنقته من مبادئ الكتاب المقدس يبدو صبيانياً أمام ناظري، أقول جعلته خير مثل لما كانوا يدعونه وقتئذ "النقد العالي".

وليس هناك ما يدعو بطبيعة الحال إلى ذكر كل ما درسته بالجامعة غير أن هناك مادة واحدة تستحق الذكر، وهي مادة علم دراسة الأجناس.

وقد كانت هذه المادة أكثر المواد شيوعاً وأشدها هدماً، أكثر شيوعاً لسهولة تمضية امتحاناتها، وأشدها هدماً لأنها كانت بعيدة الأثر في قلب عقائد الطلبة الدينية رأساً على عقب. وقد بلغت هذه المادة الذروة في الهدم خلال تلك المحاضرة التي رسم فيها الأستاذ دائرة صغيرة تحوطها دائرة أكبر ثم قال:

"تشتمل هذه الدائرة الصغيرة على مملكة الحقائق العلمية التي تلم بها إلماماً تاماً، ونستطيع إثباتها، أعني حقائق علوم الطبيعة والكيمياء والرياضيات، فمثلاً يمكننا إثبات وجود عناصر كيميائية معينة. أما هنا في هذه المساحة الكائنة بين الدائرة الصغرى والكبرى فيكمن ميدان الحقائق الثابتة ثبوتاً جزئياً، وأنصاف المعلومات، ومثل ذلك إننا نعتقد بوجود عناصر أخرى رغم أن هذه المعرفة غير مؤكدة. أما ما هو خارج عن هذه الدائرة الكبرى فهو مملكة الخرافات والعقائد والأوهام التي لا نملك لها برهاناً، ففكرة الله والمعتقدات الدينية تسبح في هذه المنطقة اللا محدودة، ونحن لا يمكننا إثبات وجود الله كما لا يمكننا إثبات عدم وجوده، وقياساً على ذلك لا يسع المرء اللبيب إلا أن يقول "أنا لا أعرف"، أعني أن يكون ملحداً.

ولوضع الحق في نصابه أعترف أن بعض أساتذتي كانوا متدينين إلى أبعد حد، وكانت الكنيسة التي نتردد عليها يوم الأحد مرغمين، تكتظ بالوعظ الممتازين، ومع ذلك كان ربط الأسباب بالمسببات، وتحرير عقولنا، هو هدفنا الأسمى. فانقسم الطلبة قسمين: أما أحدهما فغبي لا

يهتم كثيراً بما يقوله الأساتذة، وبمعنى آخر لا يفهم ما يتلقاه، وأما الثاني فمتفتق الذهن يسعى مجداً وراء الحقيقة، فكلما زاد غباء الطالب بقيت عقيدته ثابتة لا تتزعزع في زاوية محكمة الإغلاق لا تتسرب إليها نفحات الدراسة التي يتلقاها، وكلما كان رقم ذكائه القياسي(٣) عالياً نفض عن نفسه غبار العقيدة، ولجأ إلى التحليل الصادق سعياً وراء الحقيقة.

ولما تخرجت في هذه الجامعة بعد أن نلت شهادة في بيتاكابا(٤) كنت ملحداً عنيفاً ومقتنعاً تمام الاقتناع بإلحادي، ومستعداً لإقناع غيري به، وهكذا في العشرين سنة التالية كنت أبالغ في احتقار التعاليم الكنسية وأؤمن بأن الدين هو ملجأ العقول الخاملة.

ومن هنا يتضح أن علم النفس الحديث القائم على أساسي الرياضيات والأرقام، والذي يطبق على البشر لا على الورق، هو الذي قلب آرائي ومبادئي رأساً على عقب دون أن أشعر بالتطور الذي حلَّ بي من مدة طويلة.

وهنا لا يجوز الخلط بين هذا العلم، وبين التحليل النفسي، الذي أدى إلى ظهور نظريات تأملية لا يمكن تماماً الجزم بصحتها كلها،

---

(٣) Intelligence Qotient.

(٤) Phi Beta Kappa هو اسم أقدم مؤسسة صحفية للأدب الإغريقي تأسست عام ١٧٧٦ شعارها (الفلسفة دليل الحياة) وهي لا تعدو الآن أن تكون منظمة شرقية فقدت قيمتها الاجتماعية وصار اسمها الآن يمنح كدرجة علمية للطلبة الممتازين المتفوقين.

كالتعبير عن الذات والقمع والأحلام والعقل الباطن والليبدو[٥] وعقدة النقص والتربية التقدمية الخ... فعلم النفس العلمي الذي بلغت دقته الدرجة التي وصلت إليها الكيمياء والطبيعة منذ قرن من الزمان قليلاً ما يعرفه الجمهور، الذي ولو أنه سمع عن اختيار الذكاء أو رقم الذكاء القياسي، ألا إن القليل منه هم الذين يدركون أن هناك أكثر من ١٠,٠٠٠ اختبار نفسي أجراها رجال علم النفس، وأن معظم هذه الاختبارات تستخدم الآن في الحياة العامة. والقليل أيضاً من يعلم أن مؤسسة روكفلر قد وهبت جماعة من علماء النفس نصف مليون دولارا لإيجاد اختبارات التعاون المستخدمة الآن بمعظم المدارس. وقد قضى أساتذة علم النفس في جامعة مينيسوتا خمس سنوات في بحث متواصل حتى اهتدوا إلى استنباط ثلاثة اختبارات لقياس مدى كفاءة المرء الآلية، واستعداده الطبيعي لاستخدام الأجهزة الآلية، أنفقت فيها مائة دولارا تبرع بها مجمع الأبحاث الوطني وغيره من المؤسسات.

ويكاد الجمهور الذي ينفق ملايين الدولارات على دراسة الموسيقى لا يعرف شيئاً كذلك عن دقة اختبار سيشور لاكتشاف المواهب الموسيقية الفطرية في الإنسان، الذي وضعه بعد بحث مجهد دام خمسة وعشرين عاماً، قام به البروفسور سيشور، بمعاونة عدد من رجال علم النفس المساعدين. وقليل أيضاً هم الذين سمعوا عن الجهاد العنيف

(٥) Libido هي الطاقة الحيوية في الإنسان قصد بها فرويد الحرمان الجنسي أو الجانب العقلي للغريزة الجنسية، ولكن يونج توسع في معنى التعبير وأطلقه بصفة عامة على الطاقة الحيوية بأسرها.

الذي بذله أمثال ودورث وثيرستون وآلبورت وولز ورروت وبرنر ويتر وغيرهم في مجال الشخصية وحدها.

وهكذا ظهر تحسن ملحوظ في القدرة على تفهم الشخصية، وترقيتها والتقدم بها، بواسطة الاختبارات المتقدمة الذكر واستخدامها في علاج المرضى بالعيادات الطبية؛ فقد أجري اختبار قياس الشخصية وحده على حوالي نصف مليون نفسا عام ١٩٣٥ في عيادات ومدارس الولايات المتحدة.

هذا الفرع من علم النفس هو الذي أدت مكتشفاته إلى تبديل معتقداتي الدينية، وهي كما سبق أن أوضحت تختلف عن تلك النظريات الجذابة الشائعة بين الناس. كما أني قد قدمت إلى هذا النوع من علم النفس العلمي الكثير من المعونة التي حازت القبول. وأما مكتشفاتي التي سيرد ذكرها فيما بعد فلم تكن ممكنة التحقيق بدون تلك التجارب العلمية التي قام بها غيري من العلماء النفسيين، وأما كون النتائج المستخلصة من هذه الدراسات تؤيد بل تطابق بعض المعتقدات الدينية الأساسية فهذا ما سيلمسه الجميع حتماً بمرور الزمن.

وقد طبقت مكتشفات علم النفس تطبيقاً واسع النطاق على معظم المشاكل الإنسانية، فقد أجرت مصلحة تشغيل المتعطلين بمدينة نيويورك اختباراً نفسياً على ١٥٣٢١ نفساً من الرجال والنساء المتعطلين في فترة لا تتجاوز ستة عشر شهراً. وعلى ضوء هذه الاختبارات أمكن نصح كل

منهم بالمهنة المناسبة له والتدريب المطلوب له حتى يصير لائقاً لهذه المهنة.

وفي كثير من الأحيان كانت هذه النصيحة تقدم استناداً على المشاكل والعقد المكتشفة في شخصية كل منهم، والتي تكون عادة السبب الأساسي في تعطلهم، وقد تكلفت هذه العملية أكثر من مائتي ألف دولارا، تبرعت بمعظمها مؤسسة كارنيجي، وجمعية مساعدة العمال العاطلين بمدينة نيويورك. ولما كنت قد تعينت مستشاراً خاصاً في هذه العملية ونيط بي وضع الخطط ومراقبة الدراسات الإحصائية المستخلصة لعشرة آلاف نفس، ممن أجرى عليهم الاختبار، فقد أجريت عليهم ما قدره ٧٣٢٢٦ اختباراً نفسياً، وسجلت تقريراً شخصياً شاملاً لكل فرد منهم، وصادف ذلك الوقت بالذات ابتداء إدراكي أهمية العقيدة الدينية بالنسبة لحياة الإنسان، ووجدت من نفسي استعداداً لمضاهاة تجاربي السابقة على مرضاي بالنتائج الباهرة التي أتت بها تلك الاختبارات العظيمة التي توليت الإشراف عليها، وقد استخلصنا من هذه الاختبارات نتيجة مهمة، ولو أنها لم تنشر في التقرير النهائي، وهذه النتيجة هي أن كل من يعتنق ديناً أو يتردد على محل العبادة تكون شخصيته أقوى وأفضل ممن لا دين له أو لا يزاول أية عبادة.

وعلى ذلك لم تكن رجعتي إلى الدين رجعة الضال الذي اهتدى إلى دين صائب، أعني أنه لم تصاحب هذه الرجعة شعوراً متوقداً أو نعرة عاطفية، لكنها كانت رجعة عن طريق العقل فحسب لسوء الحظ. ولا

أظن أن المتدينين يقرون هذه الحقيقة حتى أنا نفسي لا أعتقد أنها الطريقة المثلى، ففكرتي عن الدين تتضمن بضع معتقدات لا تؤيدها مذاهب دينية معينة، وتنبذ بعض الآراء التي تراها مذاهب معينة جوهرية. إذن فما هو الدين؟

الدين هو الإيمان بوجود قوة ما كمصدر للحياة، هذه القوة هي قوة الله، مدبر الكون، خالق السماوات، وهو الاقتناع بالدستور الخلقي الإلهي الذي سنَّه الله في كتبه المتعاقبة، واعتبار التعاليم السماوية أثمن كنز تغترف منه الحقائق الدينية التي هي أسمى في مرماها من العلوم كلها مجتمعة، والقيم الخلقية التي هي أقوى في أساسها من نظرية السببية السالفة الذكر. فأنا مثلا أؤمن بصدق رواية مولد السيد المسيح، ولكن ليس تصديقي لهذه الرواية نتيجة لمقارنة عقيدتي الدينية بغيرها من العقائد، ولكنه إيمان خالص جاء في أعقاب اهتدائي إلى المزايا الصحيحة في ديني، الذي سبق أن طرحته لما كنت عاجزاً عن اكتشاف ما به من الخير.

وكثيراً ما كنت أحث مرضاي من الكاثوليك ليكونوا أشد كثلكة وخصوصاً في مسألة الاعتراف التي أراها طريقة فريدة في فائدتها النفسية. وكنت أشجع مرضاي من غير المسيحيين على التردد على معابدهم ومنشآتهم الدينية؛ فكنت أنحو هذا النحو في كل هذه المراحل على أساس مطالب الأفراد وضرورة استخدام الوسائل الممكنة في هذا السبيل.

ومن هنا ترى أن عودتي إلى الدين كأحد أفراد المجتمع ليست بذات أهمية في حد ذاتها، إنما المهم هو مكتشفات علم النفس العلمي الحديث التي كانت السبب في هذا التحول. وبالرغم من المزايا العظيمة التي أسبغتها العلوم الطبيعية على المجتمع البشري سواء أعانته على إطالة العمر أم على ملء الحياة بمهيئات التسلية والسرور، أم على تعميم فرص التعليم، فلن تجد أي دليل على أن الناس أصبحوا أوفر سعادة، أو أن الأسر صارت أشد ارتباطاً، وأن الحكومات والدوائر السياسية باتت أكثر حكمة وتعقلاً، أو أن الأمم أضحت أكثر تجنباً للحروب أما الدليل الملموس فيقودنا إلى الاعتقاد بعكس هذه النتيجة، فمثلاً قد فاق عدد الشعوب والجنود التي كانت مشتركة في القتال بين عامي ٤٣– ١٩٤٥ أي رقم سجلته الحروب منذ خلق هذا الكون.

وبينما العالم كله يتلظى بجحيم هذا الآتون الملتهب، كانت الولايات المتحدة تكاد الإضرابات وحرب الطبقات والصراع الدنئ للوصول إلى الحكم، تمزقها من الداخل. وأهم من ذلك كله تفكك عرى الأسرة الأمريكية التي سجلتها المحاكم. وقد ثبت خلال عام ١٩٣٨ أن ٤٧% من أسرة المستشفيات بالولايات المتحدة كانت تشغلها حالات عقلية. ومثل هذه الحالات هي التي تبين مدى الإخفاق الذي لحق المجتمع، وإن كنا نلمس آثار هذا الفشل وأعراضه في استمرار السعي الذي يكاد يميز عصرنا الذي نعيش فيه بأنه عصر نشدان السعادة.

وإذا كنت سأتناول بعض هذه المساعي بالبحث فيما بعد في فصلي (الحياة الغنية) و(التدبير الاجتماعي) إلا أني لن أحيد عن الدور الذي يلعبه رجل علم النفس في مثل هذه الأحوال، وحسبي أن أبين معناها النفسي بالنسبة إلى أفراد المجتمع.

لقد أدت دراستي العميقة للأفراد إلى مشاهدتي ذلك القبس المضيء من نور الهداية. وسواء كان أمل الإنسان هو في الحصول على الوظيفة اللائقة أو الأمن الاقتصادي أو الاطمئنان الاجتماعي أو السعادة الزوجية، فلن يعم الرخاء إلا إذا حارب الناس أسلوب الحياة الراهنة والمجتمع الحالي حرباً لا هوادة فيها، توقد جذوتها عدة من المثل العليا الصادقة العملية.

فالدين الذي أتكلم عنه ليس ملجأ الضعفاء، ولكنه سلاح الأقوياء، فهو وسيلة الحياة الباسلة التي تنهض بالإنسان ليصير سيد بيئته المسيطر عليها، لا فريستها وعبدها الخانع.

لِمَ أذهب إلى المعبَد؟

"مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ "

(الشورى ٢٠)

أخذت أحث غيري من وقت لآخر على الذهاب إلى الكنيسة، ومن ثم وجدت نفسي مواظباً على التردد عليها. ويحسن بي أن أتوقف قليلاً لأسأل نفسي عن السبب الحقيقي الذي يدعوني إلى الذهاب.

الحقيقة أني أذهب لأدرب نفسي على التضحية بما تهواه وقبول ما تبغضه؛ فذهابي يحرمني من نوم لذيذ في أضاحي أيام الآحاد – وهي الفرصة الفريدة التي تسنح مرة كل أسبوع للاستمتاع برقاد طويل – ولو أني لم أذهب لكنت مستلقياً على فراشي أتصفح صحف الصباح. وأذهب لأني أدرك قدر السرور الذي سيغمر والديَّ العجوزين إذا علما بذهابي، وأعلم مدى غبطة حميي إذا وقع بصرهما على بهو الكنيسة. وهناك أيضاً، سأضطر إلى كبت شعوري فأقابل، بل أصافح، قوماً أميل إلى معظمهم. وأذهب أيضاً لأني إذا تخلفت ظفر أولادي بعذر قوي يبرر تغيبهم عن دروس الدين، ولأني أعلم أن هناك واجبات ثقيلة على النفس عليَّ أن أؤديها صاغراً. وأذهب كذلك لأني قد أخالف الواعظ رأيه، ومع ذلك أرغم نفسي على الإصغاء إلى موعظته، ولأن بعض خاصة أصدقائي

ممن يحيطون علماً بكل دقائق حياتي يعتبرونني مرائياً، ولأنني لا أصدق مبادئ هذه الكنيسة أو غيرها، والخلاصة أني أذهب لأني موقن تماماً أن ذهابي سيفيد برغم كراهيتي الشديدة للذهاب.

تناولت حياتي الخاصة بالبحث والتنقيب، علَّني أهتدي إلى تلك البذور التي تنمو فتحيل حياء البشر إلى التعاسة والشقاء، فلما عثرت عليها بعد جهد في باطن نفسي، وجدت أنها لم تعد بعد مجرد بذور ضعيفة، بل صارت أعشاباً برية ضارة، جاء أمر استئصالها متأخراً، وإن لم يكن شديد التأخير؛ فالاعتقاد بأن مجرد التردد على المعابد هو الحل العملي لمشاكل الحياة يستكمل المرء به كأس السعادة قد أصبح بإجماع الآراء فكرة بالية عتيقة. وقد آثرت الخوض في سرد تفاصيل لا طائل وراءها قبل البدء في حديثي لسببين، أولهما إن العبادات التي يؤديها المرء ما هي إلا وجه واحد من فرائض الدين المتعددة[٦] فقد جاء في العهد الجديد: "وبالأعمال أكمل الإيمان، إن الإيمان بدون أعمال ميت".

وقد صارحني عدد جَمٌّ من الناس قائلين: "لا تظننا نشك في وجود الخالق، بل نحن نؤمن به وبقدرته جل وعلا، لكنه إيمان من نوع جديد لم يأت عن طريق ترديد الخلف قول السلف، فكلنا يمقت الكنيسة

---

(٦) يقول الله تعالى في كتابه الحكيم (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر) البقرة ١٧٧.
ويقول سبحانه وتعالى أيضاً (قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حميد) البقرة ٢٦٣.

ويتجنبها لما تثيره فينا نظرياتها ومبادؤها بل ورجالها من النفور والاشمئزاز".. فكنت أومئ برأسي علامة الموافقة، إزاء هذه الاعترافات فهي تؤيد مبادئي تأييداً مطلقاً، وتبرر نفوري من الكنيسة، وقد أدركت الآن أن هذا المقت والنفور من الكنيسة يشبه إلى حد بعيد نفس شعور الكراهية الذي يحسه المرء إزاء ظروف الحياة وأحوالها المختلفة، فمرضاي ينشدون السعادة الزوجية مثلاً دون أن يكافحوا في سبيل تحقيقها، ويؤمنون بالصداقة ولكن بدون التضحية لأجل المحافظة عليها، ويثقون بكفاءتهم وقدرتهم ولكنهم لا يستسيغون الكد والعناء اللازمين لمن يبغي العظمة ويصبو إلى التفوق في أي درب من دروب الحياة.

أما السبب الثاني، فهو أن الاتجاه السائد الآن في دوائر علم النفس الحديث، يؤكد أنه ليس للسعادة طريق غير العمل والكد والنشاط، ويستهجن معظم الآراء النظرية القديمة، كالتأمل الباطني، وتحليل النفس بالنفس، وعزاء المرء لنفسه بمناجاتها وإقناعها؛ فقد جاء وقت – وما زال قائماً إلى حد ما – اعتقد فيه بعض الأطباء الذين يزاولون قشور مهنة علم النفس، أن المريض يمكنه شفاء نفسه عن طريق مناقشته – في جلسات أسبوعية أو يومية مدة عام كامل – لرغباته المكبوتة ومخاوفه، والشحنة الجنسية بجهازه العقلي، وعقدتي التعلق بالأب أو الأم، والأسباب التي توعز بكبت غرائزه.

ولا أنكر أن بعض هذه المحاولات نالت نجاحاً منقطع النظير، وأنا شخصياً أعرف سيدة كانت تشك في حبها لبعلها، فأمضت عاماً كاملاً

تواظب على زيارة المحلل النفسي ثلاث مرات أسبوعياً، حتى صارت مقتنعة تماماً بصدق شعورها نحو زوجها.

وقد اتضح الآن بالتجربة أن أية وسيلة – بغض النظر عن مخالفتها أو مناقضتها للمنطق العلمي – قد تعين أحياناً على شفاء بعض الناس، وهذه الوسائل عديدة، فمنها التحليل النفسي، والتنجيم، وقراءة الكف، والتحليل الخلقي، وعلم الفراسة، وطريقة الدكتور كويه[٧] وغيرها من آلاف النظريات شبه العلمية التي تتراءى في مخيلة الناس بين آن وآخر.

ولكن أي ثمن تكلفه أمثال هذه الوسائل؟ وإلى أي حد يبلغ ضررها؟ وكم فريسة وقعت في حبائلها؟

طبيعي إننا لا نملك الاجابة على هذه الأسئلة لأن العادة لم تجر على الاحتفاظ بوثائق لتسجيل الفشل.

وليستبشر الناس، فقد بدأ الاتجاه الجديد في علم النفس الذي يدعو إلى العمل والنشاط ويحذر من الانزلاق في طرق التأمل الباطني والتحليل النفسي يغزو الدوائر والحلقات الطبية.

وإليك دليل فكه تلمسه عند مدخل كلية "برنستون" حيث تحمل عارضة المدخل حكمة سقراط الخالدة "اعرف نفسك" مدونه بحروف

---

(٧) الدكتور "إميل كويه" طبيب فرنسي، وهو صاحب نظرية الإيحاء الذاتي الشهيرة، وخلاصتها إمكان شفاء المريض لنفسه بواسطة الإيحاء لنفسه بقدرته على التخلص مما أصابه..

إغريقية. ولقد قيل أن شخصاً ما – ولا بد أن يكون ماكراً ثاقب الفكر – قد خط بالطباشير خطاً طويلاً فوق هذه الحكمة وكتب تحتها "هذب نفسك".

هذه الجملة الأخيرة هي التي تلخص كل مكتشفات علم النفس الحديثة التي تقول بأنه لن يتسنى لنا الحصول على الشخصية الناجعة[٨] أو الخلق القويم[٩] عن طريق التأمل الباطني بل عن طريق تدريب النفس أي تهذيبها وحكمها والسيطرة عليها.

فكما أن عازف البيانو لن يجيد عزف معقدات الموسيقى إلا بالمران الدائم سنين متعاقبة، كذلك الإنسان لن يجيد فن الحياة إلا بالتدريب المتواصل على الآلات التي تكون في مجموعها هذا الفن. والقارئ يعلم تماماً أن قضاء ساعة واحدة في التأمل والتفكير كفيل بإنتاج عدد من الأفكار، لا يمكن تحقيقها لساعات طوال بل لشهور بأكملها من العمل الدائم.

وهكذا نرى أن مكتشفات علوم الطبيعة البشرية الحديثة تؤيد بل تؤكد الدعوة إلى طيب الأعمال وجليل المثل الخلقية التي جاءت على لسان المسيح منذ نيف وألفي عام. ولا أخال أحداً ينكر اتفاق المعنى

---

(٨) الشخصية هي مدى استعداد المرء لتحويل قدرته وطاقته إلى مآثر وعادات تكسبه حب الناس.
(٩) الأخلاق هي القدرة على مواجهة الحقائق، ولا تكمل الأخلاق إلا بتدريب النفس.

بين عبارة "هذب نفسك" وقوله عليه السلام "إن الإيمان بدون أعمال ميت".

وإني لأجد نفسي على وشك الخروج عن موضوع قصتي التي أحاول أن أبين فيها كيف أعادت تجاربي، التي هي وليدة الخبرة بمشاكل الناس وأحوالهم عن كثب، كنز الإيمان الثمين إلى قلبي المجدب.

وقد تخيرت الحالات التي سأعرضها الآن من بين الحوادث الخاصة التي مرت بزواري حتى يمكن تطبيقها على أنفسنا بسهولة، فالكثير منها يمثل مواقف شائعة بيننا في الحياة، حتى أننا سنرى أنها تطابق المواقف والحالات التي وقعت لمعارفنا بل ولأنفسنا، وهذه الحوادث تصور الأخطاء العامة التي هي مصدر المتاعب لإحساساتنا ومشاعرنا.

وتحضرني الآن إحدى هذه الحالات التي مازلت أذكر تفاصيلها لغرابة المحادثة التليفونية التي سبقتها. إنها حالة سيدة شابة لا يزيد سنها عن ستة وعشرين عاماً تمتاز بجمال خلاب وحسن رائع يأسرك لأول وهلة، أتتني قائلة:

أنا امرأة تعسة يا سيدي، فقد عجزت عن كسب الأصدقاء والاحتفاظ بهم، وخصوصاً الرجال منهم، ولقد تعرفت على الكثيرين، فأظهروا نحوي من ضروب العطف الصادق والميل الشديد ما يجل عن الوصف. وكنت أتلقى منهم دعواتهم إلى الحفلات أو النزهة بسرور،

ولكن ما إن تنتهي الدعوة حتى يختفي صاحبها. ويقيني أن الخطأ لا بد وأن يكون من ناحيتي، لأني عندما أكون مع أحدهم أشعر بعجزي عن مقابلة وده بمثله وأخفق في تسليته، وأعوقه حتى عن الكلام بصراحة. وإني أعمل سكرتيرة بإحدى المنشآت الشهيرة منذ ست سنوات، فليس ثمة مجال إذن كي أفترض في نفسي الشذوذ أو الجنون، ولكني كلما فكرت في هذا الأمر زاد قلقي وشعرت بخيبتي.

وبدراستي لأحوالها فيما بعد وجدتها تعاني نفس الصعوبة في اكتساب صديقاتها الإناث، واتضحت لي كراهيتها الشديدة لغشيان المجتمعات، وفهمت أنها تعرف الرقص وإن كانت لا تجيده، ولمست نفورها من ألعاب الورق كالبريدج مثلاً، وعلمت أنها تتردد على الكنيسة دون أن يكون لها نصيب في نشاطها، ورغم معرفتها لمعظم زميلاتها في العمل إلا أنها تفضل تناول طعامها على انفراد. وقد أدهشني منها اعتقادها بأن معظم موظفي المكتب الذي تعمل به، وجل أقاربها إنما هم قوم عاديون وأقل منها ذكاء بل وأحط مستوى، لذلك لم تكن تأبه لهم، ولا تعيرهم من اهتمامها ولو قدراً يسيراً، فكانت تصم أذنها عن دعواتهم، وبدهي أنها صادفت من الناس – وإن كانوا قلة – من كانت تتحرق شوقاً إلى التعرف عليهم ومصادقتهم، ولكن هيهات أن تنال ما تتمنى، لأنها كانت عاجزة عن فهم كنه فن الصداقة، ومن ثم فشلت في اجتذاب هذه الجمهرة القليلة، وبذلك كانت الفرص السانحة أمامها لاكتساب الأصدقاء تكاد تكون معدومة.

أما رأيي الذي كونته عن هذه الحالة فسيثير دهشة أولئك القوم الذين يرجعون المصدر الأساسي لهذه المشكلة، إما إلى الشحنة الجنسية من الجهاز العقلي (لبيدو) وإما إلى عقدة التعلق بالأب أو الأم، وإما عقدة الشعور بالنقص. ولكن الحقيقة هي أن هذه السيدة الشابة كانت قد اعتادت منذ زمن بعيد أن تعمل ما يروقها فقط وأن تتجنب مالا تميل إليه. ومن هنا بدأت نواة عقدتها الحقيقية في النمو. فإذا أقام أحد معارفها حفلاً لا يروقها، فهي إما أن تعتذر عن الذهاب وإما لا تشاركهم لهوهم وسرورهم إذا لبت الدعوة، ولم تكن تميل إلى هذا اللون من اللهو. كما كانت تشترط في الشاب الذي يسألها مصاحبته إلى دار السينما ألا تقل ثقافته وميوله الأدبية عن ثقافتها، وذلك إن لم يكن يفوقها. وهكذا خلقت لنفسها الأسباب التي تبعدها عن دائرة المجتمع، فأخذت الدعوات تتناقص شيئاً فشيئاً.

ولذلك نصحتها بتلبية أي دعوة توجه إليها في مدى الأسابيع الستة التالية، على أن تعود إلي في نهايتها لتدلي بنتيجة تجربتها، والواقع أن هذه النصيحة كانت تلائم حالتها تمام الملاءمة، فأقنعتها بأن سر فشلها مع الناس الذين تميل نحوهم راجع إلى عجزها عن منح صداقتها لمن لا تميل إليهم، وأن مشكلتها لا تحتاج إلى التحليل أو مداومة البحث وراء المخاوف والعقد المكبوتة بالعقل الباطن. ولكي أبسط لها الموقف أفهمتها أن المناقشات المتداولة بيني وبينها لن تقدم أو تؤخر، فما أنا بساحر، ولا أحتفظ بعقاقير أو أقراص نفسية تستطيع شفاءها، ثم أنها لا تشكو من التهاب الزائدة الدودية أو من دمل خبيص يستدعي أن

أستخدم مبضعي. فالأمر جد مختلف عن هذا وذاك فكما سبق أن كدت واجتهدت لتكون ماهرة في فن الاختزال، فعليها بالمثل أن تكد وتتدرب حتى تتقن فن كسب الأصدقاء، وهذا أمر لن يتأتى إلا بالتغاضي عن هفوات الغير وقبولها قبولاً حسناً وتحمل المتاعب التي بسببها هذا المسلك. فإن اتبعت مشورتي في الأسابيع الستة التالية أمكنني انتشالها مما ترزح تحته، وإن لم تصغ إلى قولي فلن تجد في علم النفس كله ما يعنيها.

ومرت أيام ثلاثة وإذا بها تناديني تليفونياً وتسألني "هل تعني حقاً ما قلته لي بصدد قبولي أية دعوة تسنح لي؟"

فقلت لها "بل أعني كل حرف قلته، ولكن لم السؤال؟"

قالت "أمامي دعوة إلى العشاء ثم إلى السينما من أحد الشبان ولكني مترددة في قبولها."

فانفجرت صائحاً "بالله لم؟ أهو مجرم؟ هل هو طريد السجون؟ هل يضرب أمه؟ أيرأس إحدى العصابات؟ أمتعطل هو؟".

وكانت جوابها عن كل هذه الأسئلة بالنفي "إذن ما عيبه؟" فأخذت تشرح لي وجهة نظرها مدعية أنه دونها ثقافة، وأن أسلوبه ركيك لا يعجبها، ثم أضافت أنه مجرد عامل يشتغل في إصلاح السيارات كما أن سلوكه تشوبه فظاظة واضحة.

فرددت عليها قائلاً: "إذن اعملي ما بوسعك هذه الليلة لإسعاد هذا الشاب. ولن تخسري شيئاً إذا حاولت أن تكوني زميلة مثالية هذه المرة، وستفيدين حتماً من هذه التجربة التي ستعينك في المرات القادمة. ادعيها تضحية منك إذا شئت، ولكن تأكدي أن القدرة على كسب الأصدقاء والاحتفاظ بهم لن تأتي عن غير هذا الطريق".

هذه الحالة تبين حقيقة مهمة، وهي أن الإنسان يعجز من اختيار الأصدقاء إذا لم يتعلم كيف يكسبهم. فهذه السيدة ترفعت عن مصادقة من هم دونها لأنها غالت في تقدير نفسها. وهي وإن كانت تفوق غيرها في كثير من الشئون، إلا أنها دون الجميع فيما يختص بفن الصداقة. وبدهي أن عجزها عن اجتذاب من تحبه راجع لإخفاقها في اكتساب من لا تحبه.

وهذا بلا شك اتجاه أناني لن ينجم عنه غير اختفاء عاطفة الحب السامية، ونمو خصال البغض والكراهية. ودليل ذلك ما يردده الناس من وقت لآخر فيقول أحدهم "أنا أعلم تماماً أن الكثيرين ممن حولي ذوو خلال طيبة، ولكني لا أخالط إلا القليل منهم" ثم يبدأ يبرر مسلكه منتحلاً شتى الأسباب والأعذار، متجاهلاً أن المتعة ليست هي مصاحبة هذه القلة ولكنها الدأب والسعي المتواصل لمضاعفة عددها.

وقد ثبت بالبرهان القاطع أن من يقصر معاملته على من يحبهم فحسب، يحاول دائماً تلمس الأسباب التي تبرر كراهيته لمن يعجز عن

كسب صداقتهم، ثم أن محاولة القليل من الغير وبخسه حقه عادة تتولد من عجز المرء عن أن ينال ثقة هؤلاء الغير، فبقدر إخفاقنا مع الناس تزداد حدة النقد فينا محاولين التنقيب والبحث عن عيوبهم وأخطائهم، لأن آراءنا وأفكارنا رهن بنوع عاداتنا التي إذا ساءت خسرنا وإذا سلمت سلمنا.

وهاك حالة أخرى لرجل في الثامنة والثلاثين من عمره جاءني يقول "تكاد وظيفتي تدفعني دفعاً نحو الجنون، فأنا أعمل منذ عشر سنوات في متجر متواضع كمسجل للمبيعات وإن كنت أقوم بتنسيق البضائع المعروضة على الجمهور وأقدم يد المساعدة أثناء حركة البيع والشراء. ومع أن رئيسي رجل له مكانته واحترامه، إلا أني لا أشعر شعوراً طيباً نحوه، ولشد ما أمقت إشرافه الدائم عليّ طوال السنين العشر السابقة، فلم يمنحني البتة أية سلطة أباشرها أو أية مسئولية أتحملها. وهذا ما يقض مضجعي ويحز في نفسي. والواقع أن مرتبي لا بأس به، ولكني أتوق إلى وظيفة أتفانى فيها، وظيفة تهيئ لي فرصة التعبير عن ذاتي، وتمنحني الوقت الذي أتمكن فيه من إنماء روابطي الاجتماعية، وتجعلني أشعر بعد ترك هذا العالم أنني ساهمت إلى حد ما في إصلاح حاله وإسعاد من فيه".

لم يشك هذا الرجل قط من ضيق ذات اليد، لكنه وجد في وظيفته والمحيط الذي يعيش وسطه من المثالب والنقائض ما جعله يقسو

في نقدهما، وبمراجعة الملاحظات التي دونتها أثناء حديثه وجدت المعلومات التالية:

"أنه أعزب، ويقطن وحده بمنزل، ويتناول طعامه عادة بالخارج، ولا يرى أفراد أسرته إلا نادراً، وله أخ يكبره وأختان تصغرانه ووالد على قيد الحياة يعيشون كلهم على مدى قريب منه، أي تسهل زيارتهم. وتسليته الوحيدة المطالعة بحجرته. وهو ذو ذوق رفيع في انتقاء كتبه ومجلاته مثل كتاب "كيف تجعل الحياة تستحق العناء؟" تأليف فيربانكس. لا يميل إلى لعب البريدج أو الورق. حاول أن يتعلم لعبة البنج بنج ثم تركها في أسف. يمضي أمسياته ويوم عطلته عادة في المطالعة. لم يمارس الألعاب الرياضية بالمدارس الثانوية أو بالجامعة التي أمضى فيها سنتين. لا يجد من وقته متسعاً يزاول فيه بعض الألعاب السويدية ولا يعنى بمشاهدة المباريات الرياضية. لا يتردد على الكنيسة وغير مشترك في جمعية الشبان المسيحية أو أي مؤسسة اجتماعية. لا يدخن ولا يتناول الخمر"

تكاد هذه الملاحظات تجمل تاريخ حياة هذا الرجل، ونخرج منها بنتيجة هي أن "السلبية: هي مصدر متاعبه سواء أكانت راجعة إليه شخصياً أم إلى بيئته".

وقد لاحظت فيما بعد أني تعمدت تدوين عبارة تفوه بها لفرط اهتمامي بمغزاها إذ قال "يبدو لي أن ضيق وقتي هو الذي حرمني من أي نشاط خارجي" فلنر، هل لهذا الاعتراف نصيب من الصحة؟

هذا رجل تنحصر أفكاره في الالتحاق بعمل يملك عليه مشاعره ليتفانى فيه. ولكن سلوكه إن دل على شيء فعلى تفانيه الزائد في سبيل نفسه، لدرجة لا يمكن معها التضحية في سبيل عمله أو غيره، لأنه لا يخطو خطوة إلا في الطريق الذي يستسيغه، ويحجم عن ولوج أي مشروع لا يروقه، فتراه يفضل مطالعه سير الناس وتراجمهم دون مسايرتهم، وتلذ له دراسة النظم الاجتماعية القائمة دون إقحام نفسه في خضمها، ويقرأ بل ويردد المواعظ والحكم الداعية إلى تهذيب النفس وحكمها بينما يبتعد البعد كله عن أوجه النشاط الذي توصي به.

أراد إصلاح العالم وتوفير أسباب السعادة لمن فيه لكنه حبس نفسه في عالم ضيق من نتاج يراعه وافقه المحدود، عالم لا ارتباط بينه وبين عالمنا، فلما أجرى اختبار الذكاء على هذا الرجل وجد أشد ذكاء من ٥٥% من طلبة الجماعات كما أنه عد ضمن أذكى ١٠% من مجموع الشعب الأمريكي.

أما الاختبار الذي أجرى لمعرفة صفات شخصيته البارزة فأظهر أنه "أكثر انطواء[١٠] وبالتالي أشد اضطراباً في عواطفه" من ٨٧% من الشبان الذكور.

و"أكثر تراخياً أو تقاعساً في علاقاته الاجتماعية من ٨١% من الشبان الذكور".

و"أشد اكتفاء بذاته واستقلالا من ٦٧% من الشبان الذكور".

* * *

إذن فنتيجة هذين الاختبارين ايجابية بالنسبة لنفوره الاجتماعي ومداومة تحليله لنفسه بنفسه، وسلبية بالنسبة لعادة ضبط النفس وحكمها، فاكتفاؤه الذاتي واستقلاله يتمشيان مع عالمه الخاص الذي شيده لنفسه، وسأحاول الآن تفسير هذا الاختبار وبيان أهميته، غير متناس شرح نظريتي انطواء الشخصية وانبساطها.

ليست مشكلة هذا الرجل هي محاولة الاهتداء إلى عمل يستنفد كل جهوده ونشاطه، ولكنه الافتقار إلى أسلوب جديد في حياته يتجه فيه بكل قواه اتجاهاً خارجياً، ويبذل جهوده كلها في سبيل الجماعة، فهو في مسيس الحاجة لقضاء أمسياته مع معارفه يلعب البلياردو أو الورق أو بعض الألعاب المسلية والتردد على دور اللهو والحانات. ولا نستغرب

---

(١٠) الشخص المنطوي **Introvert** أو الفردي أو المنكمش الشخصية وعكسه الشخص المنبسط **Extrovert** أو الاجتماعي أو الممتد الشخصية.

ذلك فإن أدنأ العلاقات الاجتماعية وأحطها يتطلب إنكار الذات والحدب على الغير. حقاً قد ضربت الأن أسوأ المثل الكفيلة بإصلاحه وإن كان الأفضل والأولى الانتماء إلى جمعية دينية أو ناد سياسي أو اجتماعي حيث يجد في مشاغله ما يملأ وقته بالتدريج.

وأكاد أقرر أن الترياق الذي تشير به مدارس الفكر الحديثة هو مبادرة هذا الرجل بعقد قرانه ومن ثم تكوين أسرة. حقيقة أن الزواج والتوافق الجنسي الصحيح ما فتئا أمرين جوهريين على مر العصور، ولكني أعرف من أصدقائي من لم يتزوج فحسب بل يتمتع بسعادة زوجية لا مثيل لها، ومع ذلك تجده في قرارة نفسه شقياً تعساً.

وهذا شاب يعمل أستاذاً بإحدى الجامعات، ولا يجد للحياة طعماً إلا في هناء زوجته وبسمات طفلية الصغيرين ابتدرني قائلاً: "إن مواجهتي لطلبتي هي أشق الواجبات على نفسي وأصعبها، وهذه الصعوبة تتفاقم على مر الأيام لأني أكاد الأن أدفع نفسي دفعاً نحو صالة المحاضرات، بعد أن أحشد كل ما في جعبتي من إرادة، فإذا تخطيت هذه العقبة، وبدأت ألقي محاضرتي، توترت أعصابي وتهيج شعوري، وغالباً ما أفتقد اتزاني إزاء أتفه الأخطاء من أي طالب، فانفجر صاخباً بدل أن أكبت ما يخالجني. وهكذا أكاد أشعر بازدراء الطلبة لي، وكثيراً ما ترتجف ركبتاي خلال المحاضرة أو يسيل العرق البارد من جسمي بغزارة. والواقع أني لا أستطيع النضال مع نفسي أكثر من ذلك. وقبل أن أفكر في محاولة

الفرار من طلبتي لجأت إليك. ثم أني إذا رجعت إلى بيتي وجلست أعد دروسي أفشل في حصر ذهني فيما أقوم به".

هذه كلها إحساسات عادية قد مرت بأغلبنا، فإما أن نقبلها على علاتها حتى لا نتخلف عن موكب الحياة وإما أن نهزمها فنتخلص منها. وخد على سبيل المثال حالك عندما تفكر في إلقاء خطاب لأول مرة في حفل عام. ولكن حالة هذا الأستاذ الأخير قد تفاقمت وزاد اضطراب مشاعره، ولعل القارئ فطن إلى مشابهة حالته لحالة سلفه الموظف، إلا أن هناك اختلافين جديرين بالذكر، الأول جاء في سياق الحديث وهو حياته الزوجية الهانئة، والثاني عزمه من الصغر على أن يصير أستاذاً بالجامعة ثم نيله فعلاً ما تمنى وهو في ريعان شبابه، ولكنه دفع الثمن غالياً من كنز سعادته، فما تفسير ذلك؟

بدأ الفتى كفاحه في سبيل الوصول إلى بغيته، لا ترى عيناه هدفاً دونه، فأزاح جانباً كل نشاط من شأنه إعاقته عن الزحف إلى الأمام، فتراه يروغ من مصاحبة الناس منذ طفولته متخلصاً من الاجتماع بهم، وتجده حذراً لا ينخرط في سلك الجماعات الرياضية ولا ينتمي إلى الجمعيات المدرسية، متجنباً النوادي والكنائس، لا يجد من وقته متسعاً للتزاور مع الناس، فلما شب وكبر لم يلمس في نفسه ميلاً لمزاولة هذه العادة، ولم يشغف بأية هوية يقضي فيها أوقات فراغه. ومع أن هذا الفتى قد بلغ هدفه وعقد على زوجة تتوافر فيها كل الصفات الاجتماعية المطلوبة، إلا أنه يفتقر إلى المهارة والتجارب اللازمة لحسن تصريف الأمور مع الناس.

فإذا نجحت زوجته مرة في الخروج به، أو دعت بعض الأصدقاء إلى بيتها، ظل الفتى يعاني اضطرابا عنيفاً أياماً عديدة لشعوره بعجزه الاجتماعي، فقل خروجه وندرت زيارة الناس له. فلما تزاحمت عليه الأفكار واضطربت مشاعره، حاول التخلص من عذابه بتكريس وقته للدراسة والمطالعة، فلم يغنه ذلك شيئاً. وأخذ يوماً بعد يوم، يفقد السيطرة على انتباهه، فيستلقي الساعات الطوال ساهماً شارداً مفكراً حتى لم يعد يملك آخر الأمر القدرة على التفكير، فإذا سألته فيم امضيت أمسك، قال "لا شيء، أقوم من هنا لأقعد هناك، أو أناقش بعض الأمور مع زوجتي".

فلما أجرى لهذا الشاب اختبار صفات الشخصية ظهر أنه أكثر انطواءً، وبالتالي اضطراباً في عواطفه من ٩٧% من الشبان الذكور.

وأكثر تراخياً أو تقاعساً عن ٩٤% من الشبان الذكور من ناحية القدرة على تبادل العلاقات الاجتماعية.

وأظن الكثير من القراء يتلهف شوقاً لمعرفة الطريقة التي لجأت إليها لحل عقدة هذا الفتى والقضاء على ما يشكو منه. وهآنذا أحاول إرواء ظمئهم بقدر ما يمكنني، لأن الغرض من هذا الكتاب ليس إظهار قدرة المعالج النفسي وقوته أو تناول الطريقة التي يعالج بها طبيب معين مرضاه، بل عرض ظروف الحياة التي تؤدي بنا إلى الوقوع في براثن هذه المشكلات. وأنا أعتقد أن الإلمام بالوسيلة التي يمكن بها تجنب الشقاء

الناجم عن الشخصية الممسوخة المشوهة لهو أفضل من معرفة تلك الطرق البطيئة التي قد تؤدي أحياناً إلى الشفاء.

وأكاد أجزم بأن أحد هذين إن أصيب أحدهما بحالة عصبية به إلى الالتجاء إلي. ولم يسبق الرجلين لم تزل به كارثة أدت أو انحطاط عصبي، كما يردد معظم الأطباء ومزاولي طب الأمراض العقلية عادة، وأؤكد أن كلاهما يعاني النتيجة الحتمية لإهمال دام مدى العمر للكثير من قيم الحياة الجوهرية، ومهما كانت أسباب ذلك، سواء تأثير الوالدين أم الوسط الموبوء أم تصرفاتها الخاصة عن عمد، فقد أدى عجزهما عن تكوين بعض العادات الاجتماعية الأساسية إلى جعل الحياة جحيماً لا يطاق، وبمعنى آخر كانا يحصدان ما زرعا منذ سنين.

أخذت مثل هذه الحالات المتعددة وغيرها من الحالات المماثلة والأخف وطأة تدفع بالتدريج إلى ذاكرتي آية من آيات العهد الجديد ظننت أني نسيتها تقول:

"من وجد حياته يضيعها، ومن أضاع حياته من أجلي يجدها.. فإن من أراد أن يخلص نفسه يهلكها، ومن يهلك نفسه من أجلي يجدها"[١١].

ولكن لم أذكر هذه الآية بالذات؟

([١١]) إنجيل متى ١٠: ٣٩ و١٦: ٢٥.

لأن مطابقة المعنى في هذه الآية للحالتين السالفتي الذكر تكاد لا تحتاج إلى تدليل، فكلاهما صاحب مبدأ واحد هو مبدأ الأثرة، أي عمل ما يروق لهما فحسب، والبعد عما لا يميلان إليه، فكانت النتيجة أن أخذت قابليتها وميلها لأي عمل، تخبو وتضعف شيئاً فشيئاً، حتى أتى وقت فقدا فيه لذة الاستمتاع بما كان يحلو لهما، لأنه أضحى نخراً مريراً.

إن كلمتي (من أجلي) الواردتين في الآية السابقة لهما معنى ومغزى خاص، فهما من الوجهة النفسية الخالصة يمثلان مجموعة من القيم الخلقية تفوق قيم الفرد العادي حتى تكاد تجرفها وتقوم مقامها، فقد تكون رغبتنا الخاصة هي عمل كذا كذا وإذا بنا نصادف دستوراً سامياً، أو مثلاً أعلى، أو عقيدة نبيلة، فتدفعنا إلى التضحية بهذه الرغبة وولوج مسلك أقل إمتاعاً وأشد وعورة[١٢].

فالتنسك، أي تضحية الإنسان بميوله ونزعاته الخاصة، هو بلا مراء غرة الأديان السماوية، فأنا إذا راعينا مبدأ الزهد والتقشف في أسلوب حياتنا، ارتفع بنا إلى حياة مليئة غنية، لا حياة قاحلة مجدية كتلك التي نحياها لأن تضحية الإنسان برغباته وميوله المباشرة في سبيل تحقيق مبدأ سام لا يجني من ورائه فائدة، لن يؤدي إلا إلى النمو المطرد لعاطفة المحبة لدى الإنسان، وتزايد ميوله الخيرة. وإني لأعتقد أن أهم ما في مكتشفات علم النفس الحديث هو إثباتها علمياً أن سعادة الإنسان

---

(١٢) قال تعالى "إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم" البقرة ٢١٧.

وامكانه إدراك كنه نفسه لن يتأتيا بغير تضحية النفس في سبيل الغير، وتعويد المرء نفسه الخضوع لنظم خاصة.

فالإنسان بطبعه أناني ينقاد وراء دوافعه المباشرة، وقد أثبتت اختبارات الصفات الشخصية، والتجارب الطبية لرجال علم النفس أن هذا الاتجاه لا يؤدي إلا إلى انكماش الشخصية واضطراب الانفعالات والعواطف، والعصاب، والتخبط الفكري، والشقاء، وسوء النظام، فلا غنى عن الدين أو ما يقاوم مقامه، بحيث يسمو هذا البديل عن مستوى الفرد والجماعات، ليمكنه فهو هذه الدوافع الأنانية وقمعها في الانسان العادي، ولقيادته نحو حياة أكثر خصباً وأوفر متعة.

ولا أنكر أن هناك حوافز أخرى غير الدين قد تطيع المرء بطابعها وتسوقه إلى التضحية بسعادته التي يرفل فيها في سبيل غرض سام، ولكنك لن تجد غير الدين وحده يضم بين طياته هذا المبدأ كأساس منطقي للحياة العادية الهانئة.

فكان إدراكي لهذه الحقيقة – بعد فوات الأوان – هو السبب في عودتي إلى التردد على الكنيسة التي أذهب إليها – ولا مانع من التكرار – لأن ذهابي معناه طرح رغباتي وميولي جانباً حتى أفعل ما لا أستسيغه، وأؤدي من الواجبات ما تمجه نفسي. وأخيراً فإني آمنت بالله لما وجدت أن البشر يعجز عن إدراك مدى أهميته الكامنة إذا لم يؤمن بقوة تفوقه وتعلوه.

سبيل السعادة

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ"

(المائدة ١٠٥)

بعد أن غادرني أحد زواري ألقيت نظرة على الملاحظات التي دونتها عنه في سجلي الخاص، فاكتشفت في هذا الشخص المثل الأعلى للإنسان المتزن، بل للبطل المجهول في ميداني الصراع العقلي والنضال الخلقي.

كان الرجل عاطلاً غير موفور الذكاء، ليس له نصيب كبير من الوسامة، كما لم يكن ناجحاً من الوجهة الاجتماعية، ولا يدخر أكثر من بضع مئات من الدولارات في أحد المصارف، ومع ذلك كان حائزاً لمجموعة من العادات والعقائد التي لا تفسر سر هدوئه فحسب، بل تعتبر ضماناً لسعادته المقبلة. وكانت هذه الملاحظات كالآتي:

السن: ثمانية وعشرون سنة، وتزوج منذ عامين.

الأولاد: له طفل عمره ستة شهور.

المظهر: جيد.

التعليم: قضى بالجماعة سنة كانت نتيجته فيها جيدة.

المواد المحببة إلى نفسه: الرياضيات والرسم والطبيعة.

المذهب الديني: بابوي وعضو بالكنيسة، حر في عقائده، شديد التمييز بين الحق والباطل.

الوظيفة: عاطل، اشتغل كاتباً للحسابات ثلاث سنوات، ثم مديراً لمحل بدال مدة أربع سنوات، ويأمل في الاشتغال بالأعمال الهندسية.

الألعاب التي يميل إليها: البيزبول، وكرة السلة والمسابقات والرقص ولعب الورق.

الأندية والنشاط الاجتماعي: مشترك بنادي الاتحاد الاجتماعي، ونادي الكنيسة وعضو بفريق الرماية.

شخصيته: أظهر اختبار برونز ويتر لقياس صفات الشخصية، أنه شخصية منبسطة، متزن الانفعال والعاطفة، وأن اكتفاءه الذاتي ونضوجه الاجتماعي فوق المتوسط.

والحقيقة أن إعجابي بهذا الرجل لا يرجع إلى أنه يجيد التصويب بالبندقية بينما أنا لا أستطيع ذلك، ولا أنه بابوي المذهب وأنا لست كذلك، إنما يرجع ذلك الإعجاب إلى توافر عدد كبير من أوجه النشاط الاجتماعي في هذا الرجل، جعلني أرى فيه المثل الأعلى للرجل المتزن.

فإذا قارنا بين هذا الرجل وبين الرجلين السالفي الذكر في الفصل الاسبق، لوجدنا أن الرجلين يشتغلان بينما هذا الرجل متعطل، وأنهما شقيان مضطربا الانفعالات، بينما هو سعيد متزن الانفعال رغم قلقه

المتواصل للحصول على وظيفته، وأنهما لا يثقان في أنفسهما وبالتالي في العالم كله، بينما هو كله ثقة بنفسه وبمن حوله رغم الظروف العصيبة التي أحاطت به إبان فترة البطالة الطويلة. لقد كان ينقص كلا منهما اعتناق بعض العقائد الدينية، ويفتقران إلى معرفة قيم الحياة. وبمعنى آخر كانا عائمين مع تيار منطقهما، أما هو فكان يطفو على صفحة بحر الفوضى الاقتصادية، وكان مرتبطاً مع العالم برباط عميق وهو مطمئن النفس ثابت الجنان.

إذن لم هذا التباين العجيب بين رجل لم يحقق من مطامعه إلا النزر اليسير، وبين هذين الرجلين اللذين بلغا مرادهما، ويفوقانه معرفة وذكاء؟

الإجابة العلمية على هذا السؤال هي أن هذين الرجلين ذوا شخصية منكمشة أو طبيعة منطوية، أما الآخر فذو شخصية منبسطة، أي كون في نفسه عدداً من العادات والالتزامات المهذبة تمشي مع مجريات الحياة، وبلغة أخرى أن الأولين قد كونا عادات الأثرة وأنانية، بينما نمى الثاني في نفسه عادات الإيثار وإنكار الذات.

وقد تخبط الناس كثيراً في استعمالهم لكلمتي منطوي ومنبسط. والواقع أن كليهما مقياس للأنانية، أعني الأنانية المتطرفة في حالة الانطواء والأنانية البسيطة في حالة الانبساط، فالمنطوي أو الأناني يتحاشى مقابلة الناس، أما المنبسط فيذهب بنفسه لمقابلتهم والتعرف إليهم. المنطوي أو الفردي يتهرب من التزامات ومطالب الجمعيات

والأندية، أما المنبسط الاجتماعي فيتقبلها بصدر رجب. وقد يفكر المنطوي في إتيان عمل طيب، ولكن المنبسط يأتيه بالفعل. ولا يجد الأول الوقت متسعاً لعمل ما لا يحبه، ولكن الثاني يتلمس الدقائق الخالية ليقوم به. ويخشى الشخص الفردي ارتكاب الأخطاء، وبالتالي يفزع من إرباك نفسه، فلا يقدم على أية مجازفة، ولكن الاجتماعي، ولو أنه يخشى الخطأ بالمثل، إلا أنه يعمل ويثابر فيخطئ فيتعلم ويقاسي، ولكنه يكتسب في النهاية المهارة فيما مارسه، وتتولد فيه الثقة بالنفس.

وكثيراً ما كنت أقول لمرضاي، إن الأفضل أن يرتكبوا سبع أخطاء، بدل أن يرتكبوا خطأ واحداً، فبينما يتردد الفردي قبل أن يمضي في مشروع ما لشدة شعوره بنقصه، تجد الآخر غير مبال بارتكاب الأخطاء، لأنه يوقن أنه لن يصل إلى المجد والعظمة عن غير هذا الطريق. وعندما يفكر المنطوي في القيام بعمل ما من عدمه، فإن ذلك يرجع إلى ما سيعود عليه شخصياً، بينما يرجع ذلك عند المنبسط لما سيعود على والديه أو أصدقائه أو معارفه.

والأول يقرأ عن الحب والمغامرات والثاني يبحث عنهما، والفردي شديد النقد لأصدقائه، ولا يفتأ ينقب عن ماضيهم، والاجتماعي يعمل على اكتساب أصدقاء جدد، ومن ثم مضاعفة خبرته وتجاربه.

وتبعاً للون القاتم الذي يتخذه تفكير الأول تبدو له الحياة سقيمة مملة، بينما يعمل الثاني وكل أفكاره متجددة "طازجة".

ويلجأ المنطوي إلى أحلام اليقظة، محاولاً القرار من حقائق الحياة المرة والعيش في عالم من نسيج خياله، فإذا أرغمته ظروف الحياة الضرورية على مواجهة بعض الظروف القاسية تخاذل وتألم وشرع يشكو نقصه وعدم استعداده للصمود أمام هذه الظروف ولمواجهة الحقائق.

تلك صورة رسمتها لما أدعوه الانبساط والانطواء أو الاجتماعية والفردية، وقد تجد هناك من تنطبق عليه الصفة الأولى تماماً، أو من تنطبق عليه الصفة الثانية تمام الانطباق. أما الأغلبية فليست هي بالمنطوية كلية، ولا هي بالمنبسطة كلية، وبمعنى آخر لا تتصف بالأنانية المطلقة ولا بإنكار الذات الكامل.

أما الشيء المهم فيما يختص بسعادة الأفراد ومدى نجاحهم في المستقبل فهو الكيفية التي يوجهون بها هذه الصفات، والطريقة التي يتبعونها للسمو بها على مر الزمان، ولا غرو فالانطواء والانبساط عادتان واقعتان تحت سيطرة المرء بلا شك، وليس من الغريب أن يتساءل الفرد منا: ترى كيف سأبدو بعد عشر سنوات من الآن هل أكون أشد انطواء أم أكثر انبساطاً؟

ويصل بعض الناس إلى الشخصية الممتدة المنبسطة عن طريق تنمية مجموعة من العادات المتزنة منذ الطفولة، حتى يلغوا الشخصية المثلى المنوه عنها سابقاً ولا أعني بذلك شخصية رجل ذي منصب خطير أو رجل ناجح في الحياة، ولكني أعني شخصية رجل سعيد وعضو

نافع بالمجتمع. وقد يخفق بعض الناس عن تكوين العادات الانبساطية، في صغرهم، وبذا يصلون إلى الانطواء وهم في سن العشرين أو الثلاثين، وإن كان من الجائز أن ينالوا بغيتهم فيما بعد، إذا أفلح الواحد منهم في إجادة مهنة تضطره إلى مخالطة الناس، ومن ثم ترفعه إلى مصاف الاجتماعيين.

وقد صادفت بحكم مهنتي، الكثير من الفنانين والموسيقيين ومحترفي بعض المهن الذين كانوا على درجة كبيرة من الانطواء، وإذا بهم ينقلبون أشد انبساطاً من الإنسان العادي لسبب بسيط، هو تركيزهم لجهدهم كله في سبيل اكتساب المهارة اللازمة لإتقان معرفتهم، فبمجرد اكتسابهم هذه المهارة أحرزوا الثقة بأنفسهم، وبقدرتهم على مجابهة الظروف التي تسعفهم مواهبهم على اجتيازها، تجدهم يتسابقون في تيار اجتماعي أقوى مما اعتادوه.

وكثيراً ما يقال إن الشخص الفردي أشد استجابة وأرهف حساً لكل ما هو دقيق رقيق من قيم الحياة بعكس الاجتماعي، وأن معظم التخيلات والأحلام وأضخم الأفكار الذهنية وأسلم المحاولات الفنية يأتيها النوع الأول أكثر من الثاني. والواقع أن هذا الادعاء ليس له ما يؤيده علمياً، بل أن العلم الحديث يثبت ما هو نقيض ذلك.

وقد أجريت أخيراً اختبارات لقياس صفات الشخصية لحوالي ثلاثين فناناً من الفنانين البارزين والمتوسطي الشهرة، فاتضح لي أنهم

جميعاً أشد انبساطاً من المستوى العادي للجماهير. فنحن غالباً ما نسمع أن الفنان ذو عاطفة مضطربة وأنه يصبح عبداً لثورات عصبية بين آن وأخر، ولكن الاختبار أثبت عكس ذلك، فالفنان الناجح أكثر اتزاناً في انفعالاته وعاطفته من معظم الناس.

ومن الواضح أن الموسيقي الذي يبذل ست ساعات من وقته يومياً في التمرين معالجاً أنغامه حتى تتسق وتنسجم مع باقي فرقته، لتنساب في آذان المستمعين سحراً حلالاً، ثم يمضي في كفاحه حتى أمام التثبيط والسخرية اللاذعة، لا بد وأن يكون هذا الفنان أشد انبساطاً من المستوى العادي، حائزاً لعادات الاتزان الانفعالي.

أما الفنان الذي يفضل الانطواء فهو عادة فنان فاشل، ليس على استعداد للتضحية بلذته ودوافعه الغريزية في سبيل المجد الذي لن يأتيه إلا عن طريق التدريب والمران الشائك وميدان المنافسة المرة. ومثل هؤلاء تبقى مطامعهم أحلاماً وأوهاماً، فلا هم يحسنون إلى غيرهم ولا إلى أنفسهم.

لن يتأتى امتداد الشخصية إلا لمن كان متزن العاطفة والانفعال ويتمتع بمجموعة من العادات الجيدة. وآية ذلك أنه قد جاءني والدان بابنهما الذي كان يدرس الهندسة، ووجد صعوبة فيها لم تكن متوقعة أثناء دراسته، وقد أظهرت الاختبارات التي أجريتها عليه أن مستواه الذكائي يفوق الحد الذي يتطلبه معهده. وبالتعمق في مناقشة الصبي، اتضح لي

أنه يجد مشقة عظمى في مسايرة بقية زملائه في "جماعة الآخاء" التي تم انتخابه فيها أخيراً، وأنه يفكر جدياً في الانسحاب منها.

وبسؤاله عن مدى نشاط إخوانه في الجماعة أجاب بأن نشاط بعضهم غير مقبول ولا مستساغ، أما البعض الآخر فلا غبار على نشاطهم. وفهمت منه أن لعبتي البنج بنج والبريدج هما أحب الألعاب إلى قلوب الجماعة.

فسألته: "إذا طلب إخوانك الاشتراك معهم في لعبة البنج بنج فبم تجيبهم؟"

قال: "ألتمس لنفسي العذر بأني لاعب غير حاذق"

ثم احتد قائلاً "فأنا لا أحذق شيئاً"

واتضح لي أنه كان يعود في الحال إلى غرفته بالمنزل، ويبدأ في استذكار دروسه، وبعد حصر ذهنه بضع دقائق فيما يطالعه، يفكر فجأة في البنج بنج، وخيبته في لعبتها وسخف الطريقة التي رفض بها دعوة زملائه للعبها، ثم يفكر في حرج مركزه لو كان قد لبى الدعوة، ثم يفكر في الوقت السعيد الذي يمضيه إخوانه وقتئذ في اللعب، ثم يحاول أن يعود بتفكيره مرة أخرى إلى ما يستذكره، وإذا بضحكات اللاعبين وصخبهم يصل إلى مسامعه، ويخرق أذنيه، فيشرع يلتمس الأعذار لنفسه. وبقدر ما يفكر يشعر بالتعاسة، وتزداد الصعوبة في حصر انتباهه

فيما يدرسه، فلا يتمم في ساعة ما كان يحققه التركيز التام في خمس عشرة دقيقة.

وقد قرر أن هذه هي حالته بالضبط، ثم سألني النصيحة. فقلت له: "العب البنج بنج ولا ضرورة لكي تحذقها. العبها مع خيرة اللاعبين إذا سألوك ذلك، واختر لك لاعباً ضعيفاً إذا لم يسألك اللاعبون المهرة ملاعبتهم. واعقد العزم على أن تتحمل وتقاسي مهما حدث.

"العب دائماً ولن يمضي وقت طويل حتى تكتشف من هو أضعف منك، وستجد نفسك فيما بعد، قد فزت أكثر من مرة على لاعب ماهر، ثم ستلمس حتماً لذة ما في اللعب، وستعود إلى دراستك بعد ذلك دون الحاجة إلى تلمس الأعذار التي تقضي قوة تركيز انتباهك. فبعد أن تبذل مجهودك في نشاط اجتماعي ما، تشبع فيه رغباتك، لن تجد ما يحول دون إجادة ما تقوم به بعدئذ من الأعمال. ولعبة البنج بنج في حد ذاتها ركن تافه من أركان الحياة في الكليات، إلا أن التعليم الجامعي لا يتم بدونها أو بدون مثيلاتها من مسرات الحياة.

ومع أن هذا الفتى كان لا يتحصل على درجات جيدة في دروسه، إلا أني نصحت له أن يقلل من الاستذكار ويكثر من اللعب، فإن إخفاقه في تكوين بعض العادات الاجتماعية، وإجادة بعض الألعاب الرياضية التي يحتاج إليها بالكاد لمجابهة بعض مطالب البيئة التي يعيش فيها لم يجعله تعساً فحسب، بل عاجزاً عن حصر انتباهه الحاد في دراسته.

وكان في إمكان الفتى بالطبع أن ينسحب من جماعته وينعزل مع بعض الطلبة أمثاله، ولا غرو فإن أسرع وأسهل الوسائل لنهو أي صراع عاطفي هو تجنب مسبباته، أي الانسحاب أمام حقائق الحياة، وحصر المرء لنفسه في الدائرة الضيقة التي يقيمها حول نفسه. مثل هذا الحل لا يعدو أن يكون حلاً مؤقتاً، ولن يؤدي إلا إلى اطراد انكماش المرء. وهذا الإجراء بالضبط هو عملية الانطواء، التي إن استمرت هكذا تؤدي آخر الأمر إلى ثورات عنيفة في بركان الانفعال. ولم يكن لدى هذا الفتى من مميزات الانبساط إلا قدر ضئيل، كما كان اضطرابه العاطفي شديداً، وإن كان قد شرع أخيراً في مواجهة الحياة، وتكوين العادات التي تساعده على اجتيازه بنجاح.

وأظن أني وفقت إلى حد بعيد في تفسير نظرية الانطواء والاضطراب العاطفي والانفعالي المترتب عليها، لهذا الفتى ولغيره من طلبة الهندسة. بضرب مثل ميكانيكي بسيط، خلاصته أنه إذا كانت العادات المختلفة اللازمة لإشباع رغبات الإنسان تستهلك الطاقة الناجمة عن الجسد البشري المطرد الانتظام، كان الإنسان ممتد الشخصية منبسطاً وبالتالي هادئاً ثابت الانفعال متزن العاطفة. أما إذا افتقر المرء إلى هذه العادات المهمة الضرورية كان مثل بنيانه البشري كمثل ماكينة سيارة تدور بسرعة رغم أن السيارة نفسها ثابتة لا تتحرك، إما لأن الطاقة الآلية لم تنتقل من الماكينة خلال صندوق تروس السرعة إلى عجلاتها، وإما لأن اشتباك التروس نفسها داخل الصندوق مختل. حقيقة أن الماكينة جادة في السير والدوران، لكنه جهد ضائع، لأن السيارة لم

تتحرك قيد أنملة في الحالة الأولى، وإذا سارت في الحالة الثانية فإنها تخطو متعثرة.

فكلنا، ينفعل من وقت لآخر لنفس هذا السبب، فإذا صادف أن قابلت شخصاً، ولم تعرف ماذا تقول له، أو قلت له ما لا يصح قوله، تصاعد الدم إلى وجهك وشعرت بالارتباك.. فهناك دائماً فائض من الطاقة التي لم تستنفد، أو من الطاقة التي أسيء استهلاكها. وكل فرد عادي عرضة لمثل هذه التهيجات الانفعالية التي تعين الإنسان وتساعده، لأنها تنبهه إلى إنماء عادات أفضل، أو اكتساب مهارة أعظم، وهي لن تؤدي إلى القلق الانفعالي الضار، إلا إذا أذعن المرء للهزيمة، وتوقف عن إعادة الكرة والمحاولة مثنى وثلاث. وحينئذ يعجز عن اكتساب المهارة اللازمة لمجابهة مواقف الحياة المتباينة، والعادات الضرورية لمواجهتها.

وليست هذه وحدها السبب في الاختلال العصبي، أو الهياج الانفعالي، والقلق الزائد، وفترات انقباض النفس المثبطة، ولكنها أكثرها شيوعاً. وقليل هم الذين يعانون الاستهلاك المتزايد لطاقتهم، ولكن أغلبية الناس هي التي تعاني من الطاقة الفائضة، التي تبقى دون أن يفصح عنها إطلاقاً، أو يفصح عنها إنما بطرق شاذة.

فالشخص الأناني هو من يقيم حول طاقته سياجاً يخزنها فيه. ويحبسها داخله، فتكون النتيجة أن يشكو زيادتها. أما اللا أناني فيستنفد

طاقته عن سعة في اتجاهات متعددة، وبذا لا يترك غير فائض بسيط ضئيل من طاقته ليعالج به ضجره وتبرمه.

ولعل أحد المبادئ التي اختلف في تفسيرها الناس هو ذلك النص الذي ورد بالعهد الجديد القائل "الحق الحق أقول ذلك أن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله. قال له نيقوديموس، [١٣]كيف يمكن الإنسان أن يولد وهو شيخ لعله يقدر أن يدخل بطن أمه ثانية ويولد؟. أجاب يسوع الحق الحق أقول لك إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله. المولود من الجسد جسد هو، والمولود من الروح هو روح. لا تتعجب إني قلت لم ينبغي أن تولدوا من فوق. الريح تهب حيث تشاء وتسمع صوتها لكنك لا تعلم من أين تأتي ولا إلى أين تذهب. هكذا كل من ولد من الروح. [١٤]

فنظرية المعصية الأصلية[١٥] والتأكيد ببعث الفرد مرة أخرى، كانا دائماً مما يحير الألباب. وقد ألقت دراسات علماء النفس ضوءًا له أهميته على هذه النظرية. فنحن جميعاً – من الوجهة النفسية – قد ولدنا منطوين أنانيين، ولن نصبح منبسطين، في غير أنانية، إلا بمواصلة بعث أنفسنا من جديد، أعني ذلك البعث الشاق للعادات والصفات الشخصية

---

(١٣) نيقوديموس رئيس اليهود.

(١٤) إنجيل يوحنا ٣: ٣- ٨.

(١٥) خطيئة آدم "قلنا يا آدم ادخل أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين. فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه، إنه هو التواب الرحيم" البقرة ٣٥ و٣٦ و٣٧.

الجديدة. ففي غضون سني الطفولة المبكرة، وبتوجيه الوالدين، وبدون أن نشعر، نكتسب عادات كثيرة، أما فيما بعد، عندما تتقدم بنا السن، فلن يمكننا اكتساب هذه العادات إلا ونحن شاعرون بما نعمل، وإلا بعد بذل مجهود شاق.

فالطفل يولد وهو عبارة عن حزمة من طاقة غير منظمة، وبمعنى آخر يكون مثله كمثل آلة أو بنية مولدة للقوى، فهو ينام ويأكل ويختزن الطاقة المتولدة فيه، ولكنه غير حائز على العادات التي يمكنه بها تحويل هذه الطاقة إلى أعمال نافعة. فيجب علينا أداء جميع مطالبه، لأنه لا يقدر أن يؤدي لنفسه عملاً، فهو يلوح بذراعيه ولكنه لا يتحكم فيهما، ويلوي جسمه ويثنيه، ولكنه لا يخطو خطوة واحدة، ويحرك عينيه وإن كان لا يستطيع تثبيتهما على شيء. وبالتدريج يكتسب عادة القبض على الأدوات ومسكها وتثبيت عينيه، والزحف والسير والكلام والعدو والأكل وإلباس نفسه والذهاب إلى المدرسة والقراءة والكتابة إلى آخره.

كل هذه الأعمال تمثل نماذج من العادات التي يتمكن الطفل بها أن يحول تدريجياً طاقته الطبيعية مثل وجبات طعامه الثلاث ونوم الليل، إلى أعمال تستنفد طاقته. هذه ألف باء عملية الانبساط أو امتداد الشخصية؛ فالطفل يجيد عادة تناول الطعام بالشوكة والسكين الإجادة التي تؤهله لمشاركة غيره الطعام بأمان بعد ست سنوات من التمرين المتواصل المتعب لكل من الوالدين والطفل نفسه. ومن المحتمل أن يتعلم أن يقول: (من فضلك وأشكرك) في فترة أقصر من السابقة.

وبمرور الزمن يكتسب العادات التي تمكنه من مخالطة غيره من الأطفال، وتجنب المشاجرات وكسب الأصدقاء والمعارف، ثم يتعلم إحدى الألعاب، وغالباً ما يتقن لعبة أو أكثر من ألعاب التسلية أو المسابقات. وقد يكتسب عادة عمل واجباته المدرسية وزيارة أصدقائه ودعوتهم إلى منزله والتوجه إلى المعبد وقد ينمي في نفسه هوية ما، كعادة جمع طوابع البريد أو العزف على إحدى الآلات الموسيقية.

كل هذه العادات ومئات غيرها هي الطريق إلى عملية الانبساط، أعني تحويل طاقة المرء الداخلية إلى نشاط خارجي، يهيئ للمرء ضبط صلاته مع غيره في هذا العالم المطرد النمو. فهو ينتقل من صدر الأم الحنون وحدبها إلى حياة الأسرة العطوف، إلى حياة كلها تحذير وانذار من الوالدين (أفعل هذا ولا تفعل ذاك) إلى الزوار، إلى المشاجرات مع أطفال الجيران، إلى المدرسة إلى المدينة، إلى مملكة الكتب، إلى السينما والراديو، إلى ميدان الألعاب والمباريات، إلى الصلات الاجتماعية على وجه العموم، إلى الجامعة والوظيفة والزمالة والزواج ومسئولية الأسرة، فكل هذه الآلاف من العادات التي نماها المرء لمقابلة هذه المواقف والظروف تمثل عملية الانبساط أو بمعنى آخر عملية البعث من جديد.

فذلك الشاب الذي اعتبرته مثلاً أعلى، قد اكتسب مجموعة شاملة من العادات التي تعالج المواقف الشائعة. وهو في الحقيقة لم يكتسب هذه العادات أو هذه البراعة بدون تضحية الكثير من ميوله في وقت من

الأوقات. فكثيراً ما كان يحس برغبة قوية تدفعه إلى البقاء في بيته لقراءة كتاب ما، ولكنه يتوجه رغم ذلك إلى النادي لأنها ليلة النادي الأسبوعية. وكثيراً ما كان يتحرق شوقاً إلى الذهاب إلى السينما، وما أن يدعوه أحد أصدقائه ليلاعبه البريدج حتى يلبي دعوته ضارباً برغبته في الذهاب إلى السينما عرض الحائط. وكثيراً ما يكون في أشد الحاجة إلى الحديث مع بعض صحابه في أي من الشئون، ولكنه يذهب إلى ميدان التمرين ليقضي ساعة أو بعض ساعة في تمرين شاق مجهد في كرة السلة أو الهوكي.

إن معظم أوجه النشاط التي يتمتع بها هذا الشاب الآن كثيراً ما كانت مصدر مضايقة وألم له وقتاً ما، لأنه لم يكن يجيدها أو يحذقها.

كان هذا الرجل تحركه مثل اجتماعية ودينية تجرفه بعيداً عن ملذاته وأهدافه؛ فقد أجابني عندما سألته عن سبب عدم إتمامه التعليم الجامعي بأنه شعر أن عائلته باتت في حاجة إلى معونته أكثر من احتياجها إلى عمله. ولما سألته عما إذا كان يميل إلى إلقاء دروس دينية أيام الآحاد أجاب بأنه يحب الأطفال، ولكن مشقة تحضير الدروس والاستيقاظ مبكراً صباح الأحد جداً من هذا النشاط.

أما المنطوي فقد درج في حياته على أساس عكسي، أعني أنه درج على التعبير عن ذاته فقط. فهو لا يعمل إلا ما يحلو له عمله، فيعجز عن اكتساب العادات التي تؤدي إلى البراعة في معاملة الناس. وتراه لا يرضي

غير نفسه أولاً، بتكريس كل طاقته في سبيل نفسه فحسب. فيفشل في محاولته تعلم كيفية منح الغير بعض نفسه ووقته، وتكاد هذه الطاقة تغمره وتقضي عليه، ثم يكتشف أخيراً أن حصر انتباهه في نفسه، وعمل الشيء الذي يروقه فحسب، وتجنب ما لا يروقه، ومحاولته تكييف حياته على طريقته الخاصة، لا تبلغه النجاح المنشود، ومن ثم يسيطر الشعور بالعزلة والانفراد على حواسه، ويرى نفسه وقد انزلق في جحيم انفعالي شديد. وفي محاولته تكييف حياته على طريقته الخاصة غالباً ما يفقد ما في هذه الحياة من هناء.

وبديهي أن التمادي في هذه المهارة وذاك النشاط – أعني المبالغة في الانبساط – له خطره، ومع ذلك فخطر التطرف في الانبساط أشد هوناً من الإغراق في الانطواء، لأن الانبساط هو نتيجة العمل أو الحياة المليئة بالتجارب والنشاط أما الانطواء فهو نتيجة تجنب النشاط وندرة التجارب.

وعلى ذلك فالشخص المنبسط هو الذي يقاسي الكثير في مبدأ الأمر، أما المنطوي فذلك يعاني في النهاية.

* * *

وإن المسيح عيسى عليه السلام، الذي مثل لنا الحياة الخالية من الأنانية خير تمثيل، لهو المثل الأعلى لإنكار الذات؛ فقد كان منبسطاً إلى حد لا يمكن لغيره بلوغه، وكان منعدم النظير في حسن علاقاته

الاجتماعية فلم يتردد في قبول الماء من المرأة الواقفة إلى جوار البئر عندما علم أنها سامرية[١٦]، ولم يحجم عن الكلام معها لأنها جاهلة لا تفهم لغته، ولم يقصر اهتمامه على من يؤمنون به فحسب، بل كان لا يتورع عن الحديث مع أي مخلوق سواء كان زاخياً جابي الضرائب، ونيقوديموس رئيس اليهود أو أحد الفرنسيين[١٧] ولم يتألف من مخاطبة الكسيح والمشوه والكفيف وبائع الخمر والغارقين في الخطيئة. ولم يكن ينتظر حتى يدعوه الناس، بل كان يسبقهم فيدعوهم.

وقبل أن يبعث بتلاميذ وحوارييه إلى أنحاء المعمورة حاملين رسالته شرع يدربهم على كيفية التقرب إلى الناس، فأوصاهم بالرقة والوداعة وإن كان قد أمرهم بالإقدام بجرأة على فعل الخير..

ولو أنه كان يطمع في الوصول بالبشر إلى أعلى مراتب الحياة، إلا أن حياته الخاصة كانت في الواقع مجموعة من الصلات الاجتماعية المتينة الشاملة. فبينما كان يحاول أن يحث الناس على صالح الأعمال، كان أشد إدراكاً من حوارييه لمطالب الناس المادية، وكان سريع الفهم والتقدير لوجهة نظر الغير، مع احتفاظه برأيه الخاص، فلم يزعجه اعتداء الأطفال عليه، ولم يزعزع كيانه ضغط الناس عليه. وتراه يزور أولئك

---

(١٦) فجاءت امرأة من السامرية لتستقي ماء فقال لها يسوع اعطيني ماءً لأشرب.. فقالت له المرأة السامرية كيف تطلب مني لتشرب وأنت يهودي وأنا امرأة سامرية، لأن اليهود لا يعاملون السومريين- يوحنا ٧١٣- ٩.

(١٧) الفريسيون علماء اليهود الذين كانوا يناقشون عيسى كلامه ويحاربونه.

الذين يزدرون تعاليمه ويحيون الحياة التي ينقدها بدلاً من تجنبهم والانصراف عنهم.

ولم تكن الصفة الانبساطية أو اللا أنانية في عيسى عليه السلام مجرد حادث عرضي، بل هي نتيجة حتمية للمثل العليا التي كان يقدرها أكثر مما يقدر راحته الشخصية بله حياته، فكان مؤمناً بأن رسالته هي تحقيق إرادة من بعثه. كان المحرك لأفعاله والدوافع لتصرفاته عقيدة أقوى كثيراً من العقبات المادية والمعنوية التي اعترضته. فلم يكن قد سمع بعد عن الغدد التي تلعب دوراً كبيراً في تكوين الشخصية، أو عن التركيب الجثماني الوراثي الذي تتجسم له الدوائر الطبية الآن فتؤكد أنه بالنسبة لكليهما يكون استعداد المرء للإصابة بجنون المراهقة أو اضطراب الأعصاب أو الصرع أو البارانويا[١٨] فكان يقول "أما أنا فلست أدين أحداً، وإن كنت أنا أدين فدينونتي حق، لأني لست وحدي بل أنا والأب الذي أرسلني"

هذا، هو مبدأ عيسى في الحياة الذي كان في جوهره المقياس للنفس للحياة النشيطة السعيدة التي لا تكف عن البذل في سبيل الغير.

---

(١٨) جنون الهواجس الاضطهادية.

البلهاء عبيد السَلبية

"الذين يؤمنون بالغيب وعلى ربهم يتوكلون"

لما رأيت الناس يقصدونني وهم يظنون أني الإله الذي يوقن لهم سبل السعادة، ويقيم لهم صرح الهناء، بدأت أقدر قيمة الإله الحقيقي.

وذلك في الواقع هو الشعور الذي يدور بخلد كل رجال علم النفس والدين والأطباء الذين يفد إليهم الناس باسطين مشاكلهم باغين حلها، اللهم إلا إذا بلغ غرور بعضهم بأنفسهم حدا يجعلهم يظنون أنفسهم فعلاً آلهة.

أذكر حالة رجل أمضى في السجن حوالي عشرين عاماً لاغتياله عشيق زوجته جاءني قائلاً:

"أود أن أعرف هل للسنوات العديدة التي قضيناها في السجن تأثير على عقلي، وهل تجعلني غير لائق للقيام بأي عمل؟ ولكي تكون على بينة من أمري أقول أني كنت مهندساً ذا وظيفة ثابتة. ولقد أتى هذا الرجل إلى بيتي فأحال هناءه تعساً، ولذا قتلته متعمداً. وأعترف لك أن هذا العمل هو الإثم الوحيد الذي اقترفته في حياتي، فأنا لم أدخن أو أشرب الخمر أو أقامر، وقد أدى حسن سلوكي بالسجن إلى إطلاق سراحي قبل المدة المحكوم علي بها بأربع سنوات، أما أثناء وجودي بالسجن فكنت

أعمل كل ما في وسعي كي أشغل ذهني، وتعلمت الفرنسية والألمانية حتى أجدتهما، ويمكنني الآن القراءة والكتابة بهاتين اللغتين، ولو أن لهجتي غير سليمة تماماً (وهنا أخذ يتحدث بهما قليلاً حتى يثبت صدق ما يقول) فكنت موقناً أني لن أنال خيراً في هذا المكان الموبوء إن لم أواظب بانتظام على دراسة شيء ما. ثم أني أملك الآن ثمانين دولاراً علاوة على الخمسة والعشرين دولاراً التي أعطانيها السجن حين غادرته، كنت قد ادخرتها من العلاوة التي نتقاضاها لشراء طوابع البريد كل أسبوع، فإن زوجتي توفيت عقب دخولي السجن بسنتين فلم أجد من أرسله، وبدلاً من إنفاق هذه الدريهمات القليلة في شراء التبغ والحلوى اقتصدتها.

"وأود الآن الحصول على وظيفة كمهندس إذا تيسر ذلك، ولكني قلق، لأني أخشى أن تكون سنوات السجن الطويلة قد أحالتني شخصاً شاذاً غريب الأطوار رغم الجهود التي واصلت بذلها للمحافظة على اتزاني العقلي.

"هذا هو سبب التجائي إليك، وأرجو أن تحكم فيما إذا ما كنت لا أزال سليماً"

أخذت أجري على هذا الرجل الاختبار تلو الاختبار، وأطمئنه، وأبث فيه الثقة، وإن كنت أشفق عليه، وأرثي له، لأني كنت متأكداً من عدم كفاية هذه الإجراءات؛ فهذا الرجل يحاول البدء من جديد وسط

موجة عنيفة من موجات التعطل الواسعة النطاق. زد على ذلك ما ينوء به كاهله من ماض ملوث بجريمة وسنوات طوال بالسجن.

كان هذا الرجل في أشد الحاجة لما هو أقوى من إعادة ثقته في سلامة عقله بواسطة طبيب نفساني. كان في مسيس الحاجة إلى الاعتقاد في جمهرة من المعتقدات أسمى في قيمتها مما ألفه المجتمع من تجارب وتحامل وإجحاف. كان يفتقر إلى شحنة من القوة، أكثر ثباتاً من منطق ذهنه، مهما كانت درجة اتزانه.

ورغم ذلك فإن هذا الرجل طريد السجون، كان أشد اتزاناً في عاطفته وأكثر انبساطاً في عاداته، وأشد جرأة اجتماعية من أغلب الناس الذين نقابلهم في الحياة كل يوم. فترى بعض الناس يحبسون أنفسهم وطاقاتهم ونشاطهم كما لو كان قد قضى عليهم بالسجن الانفرادي، يجوبون الطرقات ويؤدون أعمالهم ويجيبونك إذا ما سألتهم، وغالباً تجدهم يجيدون الموضوع الذي يميلون إليه، ويتكلمون فيه بطلاقة وإسهاب، ومع ذلك تراهم يقدحون ذهنهم الضيق – ذلك الذهن الأناني الذي لا يفكر إلا في نفسه – مفكرين حائرين قلقين، فيهدمون كل معتقد أو معتنق قد يقودهم إلى الخلاص والنجاة، يسوقهم في ذلك منطق مخرب مدمر مكدود.

وهاك مثال لحالة متطرفة، وإن كانت ذائعة الشيوع، هي حالة رجل لا يعتقد في شيء ما، هو شخص منطو فر منذ سنين من ممارسة تجارب

الحياة، يجد صعوبة جمة في مزاولة مهنته أو اتباع سبيل سهل من سبل الحياة العادية قال. "استغرقت هذه الحالة من تفكيري الوقت الكثير بطبيعة الحال، وتوسعت في دراسة الكتب العلمية المتعلقة بعلم النفس، علني أهتدي إلى علاج لحالتي أو أعثر على ما يجب عليَّ عمله. ورغم ذلك فكلما شرعت في التفكير محاولاً الوقوف على السبب أو الأسباب، انتهى بي التفكير إلى أن أسأل نفسي هذا السؤال: "لم أعمل؟ ولم هذا الجهد الذي أبذله لتعليم طلبتي؟" فأنا لا أملك دليلاً واحداً يثبت أن الموضوع الذي أدرسه يفيدهم أو يضرهم. ولكني واثق أني أضيع وقتهم سيدي، وهم بالمثل يضيعون عليَّ وقتي. وإذا فرضت جدلاً أن للمادة التي أدرسها قدراً من الأهمية فهناك غيري من يمكنه أن يدرسها لهم بالمثل، إن لم يكن يفقني "لم اجتماعي بغيري من الناس ومواصلتي ربط صلاتي بهم؟ لم اشتراكي بالجمعيات؟

"وكلما اهتديت إلى بعض الأسباب التي تدعو إلى شيء ما، عثرت بالمثل على بعض الأسباب القوية التي تحتم تجنبه والابتعاد عنه.

إذن لم الكد والشقاء؟ لم التعب والنصيب؟ فحتى أسرتي يمكنها المضي وحدها في موكب الحياة دون الحاجة إلي.

"يخيل إلي الآن أنك ستشير عليَّ بإتيان بعض أشياء قد تعينني، ولكني لن أدعك تسترسل في نصائحك، بل سأسبقك فأقول إني

سأناقش الأسباب التي تبني عليها آراءك، فربما نخرج منها بحجة منطقية تقلب الحجة التي ستدعيها رأساً على عقب".

* * *

كانت هذه اللحظة انتصاراً باهراً لنظرية السببية على المعتقدات والمبادئ والعواطف وعادات الحياة الآلية التي لا نجد لها تفسيراً، فكان لزاماً عليّ أن أجيبه دون خداع فقلت "إني أوافقك كل الموافقة على ما تقول، ودعني أصور لم مثلاً عادة بسيطة لا يفكر معظم الكبار في استكناه أمرها وأصلها وذلك حتى لا تظن أن موافقتي لك هي من سبيل الذوق والمجاملة.

لم نتناول طعامنا بالشوكة والسكين؟

فإن استعمال الشوكة والسكين عادة من العادات التي لن تجد لها مسبباً، إذ معنى استعمالها زيادة الإجراءات المتخذة لإعداد المائدة قبل تناول الغذاء وإزالتها بعده، وظهور واجب جديد هو غسيلها وصقلها، علاوة على أنها تعد مصدرًا لانتقال العدوى من غيرنا إلينا، وتكلف الآباء عناء ست سنوات في تدريب أبنائهم على استخدامها بإتقان، في حين لو استخدم هذا المجهود في شيء أنفع لكان ذلك أفضل، أو على الأقل كان في الإمكان توفير هذا المجهود، فالتهام الطعام باليدين والأصابع، تلك الأدوات التي يسرتها الطبيعة أمر فطري يسير.

ويمكنك الآن أن تأتي بحجج مشابهة ضد كل مرحلة من مراحل حياتنا، وكل شخص له نصيب من الذكاء في مقدوره أن يقبل نفس الشيء. وأنا لن أناقشك أو أحاول إقناعك بالحُجَّة، وكل ما هنالك أني سأطرح عليك سؤالاً واحداً: (هل أنت مرتاح إلى حالتك الراهنة؟ وهل تود أن تبقى كما أنت؟) فإذا كان جوابك بالإيجاب فليسن لك عندي دواء. أما إذا أجبت بالنفي فقد أستطيع معاونتك، وقد تستطيع معاونة نفسك. فمثلاً يمكنني القول بأن استخدام الشوكة والسكين عمل سليم لا لأن استخدامها هو الطريقة الوحيدة المستساغة فحسب بل لأنك ستحس نشوة لذيذة عندما ترى أنك تستخدمها بمهارة، كغيرك من الناس، إذا ما أكلت معهم. وبالمثل سأقترح عليك بضع نصائح لن تنفذها لمجرد أنها معقولة فحسب، بل لأنك إذا عملت بها وحذقتها رضيت عن نفسك.

مثل هذه الحالة العقلية شائعة بين المنطوين الذين تعودوا استبدال العمل بالتأمل، والإيمان بالسببية، والعقيدة بالتحليل. والغريب أنك لا تلحظ هذه الظاهرة إلا عند ذوي العقول الراجحة والاطلاع الواسع والثقافة العالية. وكان ضمن المرضى الذين عرضوا علي، طالب مفرط الذكاء، لكنه لا يحصل على الدرجات اللازمة لنجاحه بينما كان الواجب أن يكون على رأس زملائه. كتب هذا الطالب إلى أبيه رسالة بمثابة تقرير، ينتقد فيها نظام التعليم في كليته. والواقع أن ما تضمنته هذه الرسالة ينطبق تمام الانطباق مع المنطق السليم والتسبيب الصحيح، ويكاد معظم الآباء والأصدقاء يرزحون تحت كاهل تلك العادة الغريبة التي لا

يفهمون لها سبباً وأعني بها التزامهم طريق الحجة في محاولتهم اقناع غيرهم ممن لا يقلون عنهم كفاءة في إقامة الحجة أن لم يفوقوهم. وقد تكون حججهم قوية سليمة، رغم وثوقنا بأنهم مخطئون.

* * *

يدير أحد علماء النفس الفرنسيين الشهيرين مصحة لمتطرفي المنطوين والموفقين من المنبسطين الذين دب التعب والكلل إلى عقولهم من جراء المبالغة في استخدام هذه العقول. أما طريقته مع مرضاه فهي كالآتي:

يجب أولاً أن يثق المريض فيه ثقة عمياء حتى يؤدي ما يطلبه منه في الحال دون تردد، فإذا ما خالف المريض الأوامر الصادرة إليه، أو حاول مناقشتها طرد في الحال.

ويأخذ الطبيب المريض إلى حقل مجاور للمصحة، ويشير إلى قطعة من الأرض طولها خمسون قدماً وعرضاً ثلاثة، ثم يناول مريضه معولاً وجرافاً ويأمره أن يحفر هذه المساحة من الأرض بارتفاعه. فيبدأ المريض في الحفر يوماً بعد يوم وتزداد ساعات العمل، حتى تبلغ العشرة يومياً.

وما أن يتم المريض حفر المساحة المخصصة له حسب المقاييس المطلوبة، حتى يأتي الطبيب ليتأكد من مطابقتها للأوامر التي أصدرها، وهنا يرنو إلى مريضه قائلاً بكل بساطة "والآن عليك بملء الحفرة ثانية".

الواقع إن انشغال المريض بعدة واجبات من هذا النوع الذي لا مبرر له غالباً ما يعيد اتزان قوى التسبيب في مجموع الشخصية، ويحول طاقة المرء وجهوده نحو الخارج أعني في سبيل الغير لا في سبيل نفسه.

فسعيد ذلك الذي يملك حقلاً لا تني الأعشاب الضارة عن النمو فيه رغم ما يبذله من جهود في اقتلاعها، ومحظوظ ذلك الذي يدفع بكرته البيضاء الصغيرة في كل اتجاه إلا الاتجاه الصحيح المطلوب ثم يثابر ويستمر في دفعها، وسعيدة هي المرأة التي ترعى أسرة كبيرة ولا يمكنها إشباع رغباتها على الدوام، أو التي عليها حياكة ثياب الأسرة رغم قيامها بكل الواجبات المنزلية.. وسعداء هم أولئك الذين يؤدون أثقل واجبات الحياة، سواء أكان ذلك بمحض اختيارهم أم على الرغم منهم، وسواء أكان هذا الواجب حفر الخنادق أو تنظيف الملابس والمنازل أو جمع طوابع البريد أو أشغال التطريز أو قيادة السيارات أو غسيل سراويل الأطفال، فالنتيجة واحدة.

فيوجد بين الفلاسفة والعلماء البعض الذي يعتقد أن الحياة ليست تجربة مبنية على المنطق أو على كل ما هو معقول، وأن الطبيعة لا يمكن تفسيرها بواسطة المعلومات العلمية، فالناس لا يولدون في هذه الحياة بمحض اختيارهم أو لسبب يعرفونه ويدركونه، فهم في حياتهم يعيشون على مزيد من الغريزة والمسببات التي لا هي بالمعقولة ولا بالثابتة. وهم يعلمون أنهم سيموتون يوماً ما، ولكن دون أن يدرك فهمهم المحدود سبب هذا الموت. فالعقل يعجز عن إيجاد حل لهذه المشكلات، علاوة

على أنه لم يهيأ لمثل هذا الضرب من التفكير فالفكر ليس غاية في حد ذاته ولكنه أداة يستخدمها الإنسان ليكيف نفسه مع قيم الحياة وأغراضها التي لا يمكن إدراك كنهها.

فكما أن الأسنان قد خلقت للمضغ بها لا لمضغ نفسها، كذلك العقل قد وهب للتفكير بواسطته لا للتفكير في استكناه أمره فالعقل آلة نعيش بها لا لأجلها.

وليس هناك شك في أن الحضارة الغربية قد بالغت، فجعلت العقل والفكر كليهما غاية، فالسعي إلى المعرفة والعلم، واتجاه أسلوبنا التعليمي، ينحوان إلى تعظيم شأن الفكر وتحطيم القيم الجوهرية الذي يجعل الفكر يسوي حيازته.

وخلاصة القول إن هناك قوة تسير هذا الكون، ولكن كيف نشأت هذه القوة؟ سؤال حير الناس على مر العصور. وللإجابة على هذا السؤال أقول إن القوة هي مفعول مدلول محسوس لا منظور. ولكن ما هي هذه القوة؟

طبيعي أنك تقطن منزلاً يضاء بالكهرباء وتركب قطاراً يسير بقوة الكهرباء، وتلتمس الدفء في ظل مدفأة تدار بالكهرباء، فهل تعرف ما هي الكهرباء؟ هي قوة تعرف أثرها ولا تدرك كنهها. هذا مثل أسوقه إليك أيها القارئ حتى تدرك أن هناك قوى مدركة كالقوى الكهربائية والميكانيكية. هذه القوى تتولد ونحس أثرها وندرك تفاعلاتها منطقياً

بعقل قد هيئ له مجال التثقيف في الأبواب المختصة، نعرف كيف يولد القوى ويسيرها وينتفع بها. إذن فهناك قوي غير معلومة، أليس خلق الطبيعة قوى بمعنى قدرة وجبروت؟

الطبيب بطبه، والمهندس بفنه، والعالم بعلمه، كل أولئك يجيدون منهم ولا يتعدونها إلى سواها. فالطبيب لا يفقه الهندسة، والمهندس لا يشفي جراحاً، كل في أفقه لا يتجاوزه. فإن عرف الواحد منهم الكل في فنه، فإن هذا الكل جزء من الكل الأصلي الذي هو أسرار الكون العظيم.

إذن فنحن نسلم بأن العقل الجبار المثقف العارف بكل شيء يفرض وجود مثل هذا الشخص الجاهل بجزء من أسرار الكون.

إذن كيف يعرف هذا الجاهل خالق الكون أو القدرة التي اعترفنا بوجودها في وجود الكون؟ فنحن لا نفهم طبيعة الحياة كلها فكيف بالله يمكنك أن تتصور كنه قوة الله؟

إذن هذا الفاعل قادر وعبقريته غير محدودة، لأن هذه العبقرية خلقت لنا عبقريات لم نفهم كيفية وجودها. ولكنا نعرف أن هذه القوة لا بد ذات بأس شديد، وقدرة غلابة، بحيث بلغ منتهاها هذا المبلغ السديد، العويص الفهم، السهل التقدير. هذه القدرة، سمها الخالق، سمها الموجد، سمها الله. يقول البعض لم لا يكون ذلك من فعل شركاء وليس فعل إله واحد؟ أيها القائل هل تفهم كنه أي عضو في هذه الشركة؟

إذن لنفرض أنها إرادة لها تفرعات في اتجاهات مختلفة ترجع إلى أثر واحد هو قوة القدر، أو قوة الله.

ولكن من هو الله؟.. الله كلمة مدلولها قوة، وأساسها يقين، وظاهرها خارق، وباطنها مجهول.

هي قوة تنتج، ولكن إنتاجها أعلى وأسمى وأكبر من مجموع نتائج مجموعة القوى الحسية الدنيوية المركبة بفعل العقل واليد البشرية، لسبب ظاهر، هو أن مجموع تلك القوى كلها مظهر من نتاج نتائج أعمال القوة العليا.

فما البشر إلا جزء من كثير ظاهر، معروف وغير معروف من مخلوقات تلك القوة المتعالية.

ولكن كيف تكون تلك القوة ولها مالها من سطوات وجولات وأفعال ونتائج مجهولة المبنى بعيدة عن اللمس بحواس البشر وفكر البشر التي هي الوسائل الوحيدة للمس الأشياء؟

أقول كيف تكون مجهولة، ولكن عجباً! لم التساؤل عن كونها مجهولة غير محسوسة وهي صاحبة وموجدة وسائل الاحساس؟

فهل يعقل أن يحس البصر أو السمع أو الشم إحساساً عادياً بموجده وخالقه وهو محدود في قدرته بما أراد له هذا الموجد لا يتعداه؟

وهل له أن يتعدى قدرته الموضوعة المحدودة؟.. إنه لو أراد ذلك ما تمكن لأنه مرتبط بحد لا يتعداه.

ومثل ذلك قريب. عندنا آلة تسيِّرها قوة كهربائية لتنتج عدداً كبيراً من مختلف السلع والبضائع هذه الآلة تسير بقدرة لا تتعداها، ولا تتحمل أكثر منها فهل تقدر هذه الآلة أن تلاقي قوة كهربائية أقوى من القوة المحدودة لقدرتها؟ هل في مقدور تلك الآلة أن تعرف كنه هذه القوة الكهربائية المسئولة عن تحليل قدرتها العظمى.

كلا.. كذلك البشر، منحوا عقلاً، مجالاته وصولاته محدودة بمعرفة مخلوقات الله ومنشآته المختلفة، أي محدودة بالكون الفسيح، لأنه هو مجال المعرفة لا يتعداه العقل، لأن معرفته جاءت وتجئ عن طريق هذا الكون فقط. هذا الكون المتسع وضعته قوة عليا، كحد أقصى لمعرفة جميع عقول المخلوقات البشرية، لأن تلك المعرفة في مجموعها لا تتعدى هذا الكون بحال أي أنه وضع حداً لأقصى معرفة متجمعة. فإذا كان كذلك، فما تقدر مجموعة العقول البشرية إذا اجتمعت في صعيد واحد أن تصل إلى معرفة أكثر مما وضع حداً لها لأنها تستمد تلك المعرفة من صور هذا الحد المختلفة. أي أنها لا تقدر – لو اجتمعت – على معرفة حدود واضع هذا الحد أو كيف وضع هذا الحد، لأنها تقتصر على معرفة الحد دون موجده، كالآلة التي تقتصر على معرفة القدرة الكهربائية دون معرفة أساس موجدها.

أي أن القوة الموجدة العليا لا يمكن قطعاً معرفتها – حتى لو تمثلنا نهاية قصوى للمعرفة البشرية – متجمعة متحدة. وستظل مجهولة في كنهها وفي حدودها، لأنه لا حد لواضع الحدود القصوى.

ويوجد الآن في كل ميدان من ميادين العلم من الظواهر ما يؤجج شعلة ذلك الضلال، وأعني به تعظيم شأن الفكر ومع ذلك كان علماء النفس هم الذين توصلوا إلى أن الاعتماد المطلق على التفكير فحسب كفيل بهدم سعادة الإنسان، إن لم يقوض دعائم نجاحه، ثم إن إماطة اللثام عن هذا الاكتشاف لم تتم إلا عن طريق تجارب هؤلاء العلماء مع الناس، واختباراتهم العلمية التي أجروها على الألوف. وبقي أن أقول إن الوصول إلى هذه المكتشفات قد تم بالنسبة لعلاقتها بطرق التعليم، والدين، والشخصية، وفلسفة الحياة عموماً.

فلن نهتدي إلى حل شاف لمشكلات الحياة العويصة، ولن ننهل من مورد السعادة عن طريق تقدم المعلومات والمعرفة العلمية وحدها. فارتقاء العلم معناه ازدياد الارتباك واطراد التخبط وما لم يتم توحيد هذه العلوم كلها تحت راية حقائق الحياة اليومية الواضحة وإخضاعها، فلن تؤدي هذه العلوم إلى تحرير العقول التي ابتدعتها وابتكرتها، بل ستقود حتماً إلى انهيار هذه العقول وتعفنها. كما أن هذا التوحيد لا بد أن يأتي عن طريق آخر غير طريق العلم، وأعني به طريق الإيمان، الإيمان ببعض قيم الحياة الجوهرية التي لا يستطيع المنطق إزاحتها أو زعزعتها.

وقد يبدو هذا الكلام معقداً من الوجهة النظرية، أما من الناحية العملية فهو جد بسيط. فذلك الشاب الذي لا يجد سبباً يبرر قيامه بعمل ما في المثال التحليلي السابق اكتشف أنه لا يطيق الاستمرار على حالته التي كان عليها. وهذه الرغبة بالذات أقوى في مغزاها من كل الحجج المنطقية التي أوردها. فالأطفال مثلاً مرغمون على أداء أشياء كثيرة لا يجدون لها سبباً سوى أنها مشيئة آبائهم.

أذكر بهذه المناسبة مقطعاً أخاذاً لم يغادر ذهني حتى الآن سمعته في إحدى مسرحيات سترندبرج في لحظة من لحظات الثورة العاطفية في الرواية، فقد صاح أحد الممثلين قائلاً "لن أذعن حتى أهتدي إلى هدف ثابت خارج محيط نفسي يأخذ بيدي وأتطلع نحوه".

فكان تعليقي الساخر وقتئذ أن تمتمت قائلاً "يا لها من عبارة صبيانية!" ولا غرو، فقد كنت أدرس تاريخ الفلسفة، وتلك الترهات المنسوبة للعقل الحر حينذاك، فليس في الحياة غير الضعيف هو الذي يحتاج إلى هدف ثابت خارج نفسه يتكئ عليه. ومنذ ذلك الوقت بدأت أسمع الصيحة نفسها من مئات الناس، وإن كانوا يرددونها في صور مختلفة وأشكال متباينة. فهذا في حاجة إلى هدف يصبو إليه في الحياة، وذاك يطلب منصباً خاصاً في محيط مهنته، وهؤلاء يبغون التحرر من الصراع العقلي والعاطفي، وأولئك باتوا يرون طعم الحياة مراً.

ويبدو، سواء من الوجهة النفسية أو من أي وجهة أخرى يستسيغها العقل، أن الإنسان خلق وهو مجبول على الاعتقاد في عقيدة ما، والتصرف حسب ما يؤمن به. فالإلحاد مرض عقلي، والإيمان بالخرافات أفضل من عدم الإيمان بشيء. وكثيرون هم الذيم يزدرون تلك الجمهرة من الناس التي تؤمن بالتنجيم، وعلم الكف، وعلم الفراسة، والروحية، والتلباثي العقلية[19] أو طريقة الدكتور كويه، وأصحاب مدرسة الفكر الحديث، وغيرها من النظريات التي لا تؤيدها الحقائق العلمية أو تلقي عليها ضوءًا من الشك. ولكن هذا الازدراء تصرف غير سليم، إذ أنه مهما بلغت المعتقدات من السخافة، فهي أفضل من عدم الاعتقاد في شيء على الإطلاق.

فالاعتقاد في قراءة الكف يؤدي بنا على الأقل إلى مصافحة أيدي الغير والقبض عليها، والتعلق بعلم الفراسة يقودنا إلى مداومة النظر إلى رؤوس الناس وفحصها، والثقة بعلم التنجيم تضطرنا أن نعرف أيام ميلاد أصدقائنا ومعارفنا، والإيمان بالروحية يرغمنا على الجلوس مع غيرنا ملتصقين في دائرة واحدة يلعب الانسجام والتفاهم بين أفرادها دوراً جوهرياً. كل هذه المعتقدات تقوم بدور كبير في سبيل زحزحة الإنسان بعيداً عن عالم ذاته، وتدفعه دفعاً في اتجاه عالم آخر مليء بغيره من البشر، عالم أشد خصوبة وأوفر متعة. ومن الظواهر البارزة التي يجب تسجيلها هنا أن عدداً كبيراً من العقليات العلمية العظيمة الشهرية قد

(١٩) التلباثي: ظاهرة إيصال تأثيرات من أي نوع من عقل إلى آخر، بعيدا عن مجاري الحس المعروفة.

عجزت عن إشباع نفسها في الميدان العلمي الذي نبهت فيه، ومن ثم تحولت إلى دراسة الروحية والتلباثي العقلية لعلها تجد في ذلك راحتها.

فبالله كم تبدو مثل هذه المعتقدات واهية تافهة إذا ما قورنت بالإيمان بالعقيدة الدينية التي تتخلل الحياة في مختلف نواحيها، والتي لا يمكن لأي علم قائم أن يقيم الدليل على بطلان مشتملاتها الجوهرية؟ فالواقع أن عبادة السببية والاحتقار الفكري للديانات قد جعلا الإنسان فريسة سهلة بين يدي تلك النظريات شبه العلمية التي لا تقوم اليوم إلا لتموت في الغد، ولقمة سائغة بين براثن أدعياء الطب، وتلك المذاهب السياسية التي أصبحت اليوم تحير عقله وتبلبل فكره.

وأظن أنه لا يغيب عن فطنة أي لبيب، أن الاعتقاد في وجود الله هو في حد ذاته اعتقاد مقبول بل أقرب إلى التصديق من تلك الاعتقادات المضحكة التي يدين بها الناس الآن – إن كان العالم يتطلع إلى كل ما هو معقول مقبول – ولعل الإيمان بالله وبرسله وكتبه أقل عرضة للمهاترات الجدلية من معظم تلك العقائد شبه العلمية التي يقع الإنسان تحت سلطات تأثيرها المخدر فإن إيمان المرء بشيء ما ليس أمراً طبيعياً فحسب، بل هو جد ضروري له. ففي حالة عدم توافر الإيمان الصادر عن القلب يصبح المرء عبداً ذليلاً لكل عقيدة محملة بوعود الحياة الغنية التي يشتهيها ويرتقبها.

وقد دأب رجال علم النفس منذ سنين على القيام بدراسات علمية حول علم نفس العقائد وعلاقتها بالحياة؛ فأخرجوا لنا عدداً من الاختبارات المتنوعة لاستخدامها مع كل الأفراد والجماعات كاختبار البورت للقيم الذي يشمل الاعتقادات الدينية والاجتماعية والاقتصادية والتقدير النفساني للجمال، ومقاييس ثيرستون لقياس الميول والاتجاهات منها سبعة عشرة مقياساً للمعتقدات الدينية والاقتصادية والخاصة بالأجناس إلى آخره، وكذا مقياس دول للرشد، وغيره.

فقد أجريت دراسات واسعة النطاق على معظم أفراد الشعب الأمريكي لمعرفة الاتجاهات المتغيرة في عقائد الجمهور. وإحدى هذه الدراسات التي أجريت في هذا المضمار هي تلك الدراسة التي أجريت على موضوع تفريج أزمة البطالة، فقد قام جمع مكون من حوالي الخمسين عالماً من علماء النفس وتلامذتهم بعمل اختبارات متعددة على عامة أفراد الشعب في خمسين مدينة من مدن الولايات المتحدة الأمريكية، وكان الاختبار ينحصر في طرح السؤال التالي: أيهم تعتقد يكون المسئول عن تفريج أزمة البطالة، هل هي بلدية مدينتك، حكومة الولاية أم حكومة الولايات المتحدة كلها؟

مثل هذا القرار من الالتزامات الشخصية والخلقية، الذي يظهره هذا الميل بوضوح، لا يمكن أن يحدث إلا في مجتمع يفتقر إلى المعتقدات والمبادئ الدينية. بل إن الإيمان بفكرة قيام الغير بتحسين حالنا، هذا الإيمان الذي يبرزه الاتجاه السالف، لا يعني إلا شيئاً واحداً،

هو انعدام إيمان الأفراد أنفسهم، وافتقارهم إلى الشعور بواجباتهم والتزاماتهم، فترى الكل وهو يأمل أن يلقي بالمسئولية على عاتق غيره.

ويتضح مما سبق أن الاتجاه الشعبي يخطو حثيثاً نحو الانطوائية، لأن الناس يفضلون الطريق السهل المعبد ليسلكوه، فتراهم يفرون أمام حقائق الحياة، ويحاولون جهدهم لابتعاد عن كل ما يتعبهم أو يؤلمهم، ويتجنبون الاحتكاك المباشر بالناس، ومن ثم السير وراء تجارب الغير بدلاً من الاستفادة بتجاربهم الشخصية، ومجمل القول إنهم يهربون من كل تلك العوامل المؤدية إلى الانبساط والكفاءة الشخصية بالحياة الغنية لكل منهم ولغيرهم من العاطلين. ورغم أن البرنامج الذي بدأ الناس يتبعونه يبدو معقولاً، إلا أنه في الواقع ليس إلا ذريعة عقلية يتجنبون بها الحل الصحيح. فنحن نضع آلهة الفكر أو المنفعة السياسية فوق آلهة الواجب العبوس، فكلما زاد ذكاء المرء تشعب مدى آرائه واتسعت مرة للأخطار، التي هو على وشك الوقوع فيها، من جراء انسياقه وراء آلهة المنفعة المؤقتة، بدلاً من آلهة المنفعة الخالدة الأبدية.

وإني كطبيب نفساني أولاً، وكإنسان ثانياً، سأحاول أن أقدم النصيحة خالصة، وسأبذل كل جهدي لمساعدة كل من يحتاج إلى معونتي، ولكني أرفض أن أكون كالآلهة، وآمل ألا أحرم أي فرد من حقوقه الشرعية في الاستقلال بنفسه، والاحتكاك المباشر بغيره من الناس، والكد، والمقاساة، وأي سعادة قد يجلبها على نفسه من وراء سعيه. وأذكر بهذه المناسبة حالة سيدة إسكتلندية ذات مظهر

أرستقراطي، كانت في عذاب مستعر وهي في الخمسين من عمرها، وعلاوة على أنها كانت تعبر أحرج فترات حياتها، كانت ترزح تحت مشكلة أخرى لا تقل عن الأولى إزعاجاً؛ فقد مات فجأة زوجها الذي كان قد بدأ يذوق طعم النجاح في مشروعاته التجارية دون أن يترك لها مورداً. وكان لها منه طفلة في الخامسة من عمرها. وكانت أسرتها فقيرة رغم أنها أسرة مثقفة، ولهذا السبب هاجرت إلى أمريكا وأخذت تزاول الخدمة في المنازل. وفي الوقت الذي جاءتني فيه هذه السيدة كان لها عشر سنوات تعمل فيها مدبرة شئون منزل إحدى الأسرات الغنية، تسوس فيها حوالي الخمسة خادماً. ومجمل القول إنها كانت امرأة قديرة.

أما ابنتها فقد تزوجت رغم إرادة أمها، وحاولت الأم أن تتركها هي وزوجها يعيشان في سلام، ولكن متاعبها التي لم تكن تقف عند حد جعلت هذا الأمر مستحيلاً. إذ فقد الزوج وظيفته بعد أن تم له تكوين بيته، فشعرت الأم أنها مضطرة إلى بسط يد المعونة لهما مما ادخرته في العشرين سنة الأخيرة، وأخذت مطالبهما تزداد بالتدريج حتى نضب معين الأم.

وكان الزوجان لا يكفان عن الشجار منذ عقد قرانهما، وزاد الطين بلة غيرة الزوجة المتناهية. وقد تأجج هذا التنافر بعد أن وضعت طفلها منه. وكانت تفصيلات المشاحنات التي تدور بينهما والتي سردتها الأم على مسامعي جد مؤلمة، حتى أن الزوجة قد حاولت مرة الانتحار، ثم أنقذت في آخر لحظة. وبعد مضي مدة تدلهت الزوجة في حب جار لها

كان والدا لأربعة أطفال. وكان هذا الرجل يبادلها الحب أيضاً وإن كان ليس على استعداد لهجر أسرته. وفي الشهر الماضي وقعت الفتاة فريسة مرض خطير، فنصح الطبيب لها ببضعة أشهر تقضيها في راحة تامة، وأشار عليها بتغيير المناظر التي تشاهدها. وكل هذا بالطبع يتطلب مبلغاً كبيراً يجب أن تقوم الأم بسداده، ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقط بل وجدت الأم نفسها مرغمة على طلب عطلة مؤقتة تقضيها إلى جوار ابنتها وحفيدتها. وبعد أن أتمت الأم التعسة قصتها التفتت إلي وصاحت "فبالله قل ماذا صنعت حتى يلحق بي كل هذا العذاب؟ وبم تنصحني الآن؟ إذ لا أدري أي وجهة أتجه؟ ولا أعرف ما يجب علي فعله؟ لقد كنت دائماً متدينة إلى أقصى الحدود، أصلي بين وقت وآخر وأسأل الله الإرشاد والتوجيه، ولكن السنوات الخمس الأخيرة قد زعزعتني حتى بدأت أفقد إيماني بالله. وأنا أعترف لم ارتكبت بعض الأخطاء، إذ كان يجدر بي ألا أمد إليهما يد المساعدة من أول الأمر، وبذلك كانا يتركان ذلك المنزل، ومن ثم تتجنب الفتاة ذلك المأزق الغرامي مع شاب غريب. وأرجو أن تدلني على ما يجب على فعله الآن أو بعد أن يتم شفاء ابنتي؟ فقد أشار علي أحد أصدقائي ممن ساعدتهم بالالتجاء إليك، ولا أكتمك أني لم أكن أؤمن بمثل هذه الأِشياء إلى أن أقنعني. فهل ثمة شيء يمكنك به أن تنتشلني من هذه الورطة؟"

ترى ماذا أقول لها؟ أو ماذا يمكن أن يقوله لها أي أنسان؟ فهي قد ذكرت بنفسها خطر عواطفها الناجمة عن بلوغها تلك السن، وهي قد اعترفت بارتباط عواطفها الناشئة عن وجودها بمفردها كامرأة إلى جوار

ابنتها الوحيدة، وهي قد ندمت على الخطأ الذي تردت فيه عندما كانت تقدم المساعدة المالية بسخاء، بل لم يعد في إمكانها الآن تكراره فمن يمكنه التنبؤ بما ستؤول إليه هذه الحالة، ويمكنه علاجها وهو واثق من نجاحه؟

كانت هذه المرأة البائسة في حاجة ماسة إلى من يشد أزرها ويشجعها لا إلى من ينتقدها ويتهمها؛ ولذا قلت لها "أن هناك هفوة واحدة خطيرة أخشى أن تقدمي عليها، وهذه الهفوة هي أن تفقدي إيمانك بالله وبدينك فإن دينك لم يعدك بحياة مثالية في هذه الحياة، ولم يقل إنه سيجنبك الآلام والعذاب، ولكنه يضمن لك القدرة والقوة على الصمود أمام هذه الآلام. كما أن دينك لا يتوقع منك أن تكوني مثالية، لا تأثمين في حياتك. ولا تخطئين في الحكم على الأشياء، ولكنه يعدك بالصفح عن آثامك وغفران أخطائك. إن دينك ينتظر منك المداومة على بذل كل جهدك في سبيل غيرك، ولكنه لا يضمن لك أو لغيرك تكييف حياة الغير وتنظيمها حسبما تشتهين. ولا يفوتني أن أذكرك أن معنى دينك هو الثقة التامة بالله وبأساليبه الغامضة أحياناً. فمثل هذه الثقة تدعمك بسلام وثقة باطنيتين، أنت في أشد الحاجة إليهما كي تهتدين إلى حل تخرجين به من مشكلتك العويصة – وصحيح أني ربما قد أساعدك بعرض بعض النصائح المفيدة، ولكن لم يخلق بعد ذلك الآدمي الذي يمكنه أن يمنحك شيئاً يعادل في قوته وفائدته ما يمنحك دينك، بل أني أعدك محظوظة إلى حد كبير لأن لك ديناً يمكنك الاعتماد عليه".

ويسرني كثيراً أن أقرر أن هذه السيدة لم تعد بعد في حاجة إلي، فقد لاحظت من الهدوء الذي سادها فيما بعد والثقة العجيبة التي اكتسبها في نفسها أنها قد عبرت المحنة بسلام، وأنها عملت كل ما في وسعها – وأكثر من أي شخص آخر – لتجتاز مشكلتها.

قيل إن الدين ملجأ ضعاف العقول. أما من الناحية النفسية فأقول بدوري أن هذا الضعف إنما يكمن في الحقيقة في عجز العقول عن إدراك ضعف العقول كلها. فإن الشعب الأمريكي يتخبط بدرجة لم يتخبط بها شعب من قبل رغم تقدم العلوم الحديثة، واطراد نظم التعليم، وكل تلك الوسائل الآلية التي تعيننا على السمو بعقولنا، والنهل من الثقافة والمعرفة، وأعني بها وسائل المواصلات السريعة؛ فقديماً كنا نسمع أن نضالاً قد قام تارة في سبيل إلغاء الرقيق، وأخرى في سبيل اكتساب بعض الحقوق والحريات، إلى غير ذلك. أما الآن فأوجه الصراع متعددة لا حصر لها، وكلها تنشب في وقت واحد، ومعظمها يدور حول مشروعات حسابية أو آلية في سبيل إقامة صرح حياة اقتصادية غنية.

* * *

ويرجع الفضل في إخراج معظم هذه المشروعات، إلى نور العصر الفكري الذي نجتازه. ويكاد معظم المنادين بهذه المشروعات يتصفون بصفة واحدة مشتركة، تضمهم جميعاً، هي العجرفة الفكرية غير المحدودة، التي تحتقر قيم الطبيعة البشرية البسيطة الجوهرية، مصحوبة

بعقيدة جوفاء في مدى قدرة مشروعاتهم الطموحة. أما كون مشروع أحدهم يناقض مشروع الآخر، فأمر حتمي لا مفر منه عندما تقطع العقول صلتها وروابطها بالمعتقدات والتقاليد، التي هي أرسخ أساساً من العقل وأسبابه ومسبباته.

فبقدر ما نحصل من العلم والمعرفة، نلمس عجزنا وجهلنا بالقيم الأساسية للحياة والخلق، التي هي في العادة قيم دينية [٢٠] غير صادرة عن العقل، بل هي بعيدة كل البعد عن إدراكه. فإذا اتحد العقل مع الدين، وامتزج به، كان عقلاً جباراً قوياً، عقلاً ليس نهباً للتيارات المختلفة التي لا تفتأ تنبع من المعلومات المتزايدة الناتجة عن التفكير المطلق غير المتأثر بالدين.. فإذا نصَّبنا من العقل إلها نعبده وندين به، نكون قد انحرفنا بعيداً عن طريق الله. ولا عجب فقد بتنا عبيداً للسببية تخدرنا الحقائق العلمية، وصدق إلدوس هكسلي إذ يقول:

"لا شك أنكم بالغين الحقيقة يوماً ما، وستجعل منكم الحقيقة مجانين".

---

(٢٠) يقول الله تعالى "وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً"

الخير في الاندماج مع الناس

"وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"

(الروم)

"وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ"

(المائدة)

حدث أن دُعي عيسى عليه السلام إلى عرس في قانا الجليل، فلم يكتف بالمبادرة إلى تلبية الدعوة فحسب، بل انقاد لرأي أمه عندما فرغت الخمر وطلبت إليه تقديم المعونة إلى أهل العرس بأن يحيل الماء خمراً. فبتحليل حياة عيسى لن نجد فيها قبساً اجتماعياً فقط بل إن حياته نفسها قصة خالدة في وسائل كسب الأصدقاء من كافة الطبقات وفي مختلف الظروف وشتى المواقف.

وإذا نظرنا إلى الصداقة من الناحية النفسية، نجدها تحتم على الإنسان اتباع سلوك إجباري معين، أعني إخضاعه ميوله ورغباته لميول ورغبات الغير. ولكن سرعان ما يلمس أولئك الذين اكتسبوا موهبة كسب الأصدقاء أن هذا السلوك لم يعد إجبارياً، بل لقد صار فيهم طبيعة ثانية. وسريعاً ما يعتادون الكلام والعمل بما يدخل السعادة في نفوس الغير،

حتى أنهم ليشعرون بأنهم إنما يدخلون السعادة في نفوسهم هم لا إلى أصدقائهم. وهذا حقق لأن أشعار الغير بالسرور قد أصبح المبدأ الأول في برنامج متعتهم وأسلوب حياتهم القائم على إنكار الذات ومراعاة الغير.

هل تلعب البريدج؟.. سؤال وجهته مراراً إلى معارفي؛ فأجاب البعض: "لا؛ فأنا أعتبره مضيعة للوقت" بينما قال آخرون: "نعم.. ألعبه، ولكن لشد ما نقمت أن يلعبه زملاؤنا بطريقة جدية".

ومع ذلك تراني قد أشرت على المئات من مرضاي بأن يتعلموا لعبة البريدج، بل أوصيتهم أن يلعبوه بطريقة جدية، لا لسبب إلا لأنه أحد العناصر المهمة اللازمة لاكتساب عادات إنكار الذات وصفات الشخصية المحببة. فذلك الشخص الذي لا يحب أن يلعب البريدج جدياً لهو مخلوق أناني، لأنه يضرب صفحاً عن اللذة التي سيشعر بها زملاؤه خلال اللعب، وحتماً تجده محروماً من عادة حصر انتباهه في مراقبة حركاتهم، وملاحظتهم أثناء اللعب، مفتقراً إلى الرغبة في الالتفات إليهم، وهو في الواقع يهينهم إذ يخاطبهم قائلاً "إن حصر انتباهكم في مثل هذه اللعبة هراء، بل أن المتعة التي تجدونها فيها تافهة حقيرة. لم لا تنظرون إليها نظرة سطحية كما أفعل أنا؟"

فذلك الشخص الذي يفتقر إلى الذوق السليم والحس الدقيق، وروح الإنصاف خلال لعب البريدج، لا بد وأنه يفتقر إلى هذه العادات

نفسها في نشاطه الاجتماعي. أما أن كان يلعب البريدج أو غيره فإنه سيحاول على الأقل أن يكون مثل من يشاركونه اللعب جداً.

فتعلم البريدج يتطلب اكتسابك لعدد كبير من العادات الانبساطية- وأذكر أني أحصيت منها ثلاثاً وخمسين عادة، هناك غيرها بطبيعة الحال - التي تجعلك انتباهك فيما يقوله ويعمله الغير. وكنت أوصي بهذه اللعبة خصيصا بالنسبة لأولئك الانطوائيين الذين يفتقرون إلى الجاذبية الاجتماعية وتنقصهم الأساليب الاجتماعية الناجعة، فإن تعلم الفرد من أولئك المنطوين أن يلعب دوراً واحداً من البريدج بإتقان، فمعنى ذلك أنه قد تعلم أن يركز عقله في شيء خارج محيط ذاته، في شيء يجلب المتعة إلى غيره، فمعرفته لعب البريدج تتيح له الفرصة كي يثبت قدميه على شيء ما يبدأ منه الحديث إلى الناس، فإن كان يجيد اللعب طغت مهارته على كونه محدثاً غير لبق. ففي خلال هذه الظروف المناسبة فقط يمكنه اكتساب العادات الاجتماعية النافعة بسهولة.

ويجب تعليم الأطفال هذه اللعبة منذ سن مبكرة. وقد لا يميل الطفل إلى هذه اللعبة في مبدأ الأمر، وهنا يجوز أن يتميز تعليمها بصفة الإرغام. فقد يطلب الأب والأم إلى طفليهما الجلوس معهما ليشاركهما لعب دور، وإذا بهما يفاجئان بمثل هذا الرد "لا فنحن نفضل الاستمتاع إلى الراديو" فإذا أصر الوالدان، جلس الطفلان يلعبان وهما ساخطان ناقمان بغير انتباه، ودون تعاون. وسرعان ما يبدو عليهما التأفف والرغبة في الكف عن اللعب. ويحسن بالأب أو الأم في هذه اللحظة بالذات،

أن ينذراهما قائلين "إذا لم تحصرا انتباهكما تماماً في هذا الدور، فسنضطر أن نلعب دوراً آخر" ولا تدهش إذا وجدت طفلك بعد مرور عام واحد من اتباع هذه الطريقة معه، يعود إليك من عند أحد أصدقائه، وهو يصيح فيك قائلاً "لقد لعبت دوراً عجيباً مع صاحبي وهزمته هزيمة نكراء".

الرقص

لقد لقنت في تربيتي الدينية منذ نعومة أظفاري أن لعب الورق والرقص ومشاهدة المسارح من الأمور المحرمة، ومع ذلك فقد حاولت عبثاً أن أجد في تعاليم المسيح أو في كتابه ما يبرر مثل هذه الاتجاهات التي كانت تحرمها الكنيسة، ولا يزال البعض يحرمها حتى الآن. فلم أهتد إلى شيء من هذا القبيل. فإن أي نشاط– مهما بلغت مزاياه– قد يكون مصدر شر بلحقنا أو شرك ينصبه الشيطان لنا. فالرقص مثلاً، له فائدة عظمى، وقد أشرت به على المئات من زواري، ومن الأمثلة الواقعية، أنه قد وفد عليَّ رجل في السادسة والعشرين من عمره، ذو منظر جذاب ويشغل مركزاً لا بأس به، ولكنه مع ذلك بائس إلى حد جعله يفكر جدياً في الانتحار. وبعد أن أجريت عليه الاختبار اللازم، اتضح لي أنه لا يفكر في غير نفسه، بل يبالغ في هذا التفكير، وأنه محروم من الأصدقاء، ومعدوم الصلات الاجتماعية، ويمضي معظم أمسياته في المطالعة، كما اعترف لي أنه لم يصادق في حياته امرأة واحدة، ولم يدع أية فتاة إلى

مرافقته في أي نزهة، ويتجنب قدر طاقته أن يوجد في مكان مع النساء. وهذا بالطبع مظهر واحد من مظاهر مشكلته، ولكنه مظهر أساسي مهم.

وقد جرت العادة في مثل هذه الظروف أن يقال لمثل هذا الشاب "أنت في حاجة إلى امرأة"، ولكن الواقع أنه لم يسبق لي قط طوال الفترة التي زاولت فيها مهنتي أن قلت لرجل ما إنه في حاجة إلى امرأة، أو قلت لامرأة أنها في حاجة إلى رجل، إنما كنت أدلي في المئات من الحالات التي عرضت علي، باقتراحات عملية، تقود الواحد منهم إلى اكتساب العادات، وأوجه النشاط التي تؤهله ليكون زميلاً مؤنساً لغيره من أفراد الجنس الآخر.

وكنت أعد البريدج مثلاً أحد هذه الأوجه النافعة، كما كنت أعتبر الرقص أسرع بل أقوى مستحدثات العلاج النفسي، لرفع ذلك السياج المصطنع الذي يقوم حائلاً بين أفراد الجنسين، وإليك ملاحظاتي التي دونتها بخصوص مشكلة ذلك الشاب وقتذاك:

ينقسم البشر إلى قسمين: رجال ونساء. وأنت إذا عجزت في صغرك عن إنماء عادات أساسية معينة، تكون قد استبعدت من حياتك كلية ذلك الجانب النسوي من الحياة. فإن قدراً كبيراً من طاقة الفرد الطبيعية – باعتباره مخلوقاً بشرياً – لا يمكن إشباعه تماماً دون التعبير، الذي يتخذه هذا النوع من الطاقة عادة، في المحادثات التي تدور مع الفتيات في المدارس، والمواظبة على التردد على الحفلات التي تضم

الفتيات، وغير ذلك من أوجه النشاط التي توفر هذه الزمالة، وأخيراً في الزواج. فالزواج والأبوة هما الذروة التي يبلغها التعبير عن طاقة المرء الطبيعة بالنسبة للجنس الآخر، ومع ذلك، فكثيراً ما يتملك الناس أثناء طور شبابهم خوف الملامسة البدنية للجنس الآخر، لا لسبب إلا لطبيعة هذا النوع من الطاقة، والعلاقات الجنسية التي تتطلبها فتراهم يقيمون سياجاً بدنياً، بلغ جموده وعنفه حداً جعلهم ينفرون حتى من أكثر الملامسات البدنية شيوعاً، فقد يطالع الغلام القصص الغرامية ويستمتع بالمواقف المثيرة فيها، ولكنه ما يكاد يلج عالم الحقائق، حتى بتصور مجرد مصافحته لإحدى الفتيات تجربة مؤلمة قاسية، يفضل لو تجنبها وابتعد عنها.

وإن كل من يشعر بأن مثل هذا السياج قائم، إنما يفسد على نفسه جمال أية مقابلة عرضية بينه وبين إحدى النساء، حتى يصبح الحديث إليها أشد صعوبة من الحديث إلى الرجال، ومن ثم تصير النساء جنساً غريباً عنا لغير ما سبب إلا لأنهن نسوة.

أما الفائدة التي يجنيها المرء من تعلم الرقص فهي اضطرار الرجل إلى ممارسة الملامسة الجسمانية لا مع امرأة واحدة فحسب، بل مع عدد وفير منهن، إلى أن يقتنع في نهاية الأمر أنها ليست من الفظاعة أو الصعوبة التي كان يتصورها. ثم أن حصر انتباهه في محاولة ضبط وقع خطواته واحكامها مع خطوات زميلته، ليس إلا نشاطاً يتطلب عنصر التعاون، حتى يكافح شخصان في سبيل بلوغ الكمال في شيء ما،

كلاهما يخضع قدميه لخطوة خاصة يتطلبها نغم خاص. فيجد نفسه مضطراً إلى ضبط خطواته مع زميلات عديدات مختلفات، ويجد نفسه مسوقاً إلى تحريك قدميه تبعاً الخطوات مختلفة، حسب ما تمليه النغمة الراقصة.

وجملة القول أنه بمزاولته الرقص لا يكتشف المرأة، بل جنس النساء على وجه العموم، فيراهن بشراً مثله، ولسن بالعنصر الفظيع الصعب الذي كان يتخيله.

وهكذا يكون قد خطأ خطوة واسعة في سبيل التعبير عن طاقته عن طريق ذلك الجانب الآخر من الحياة، ولا عجب، فجزء كبير من هذه الطاقة قد هيأته الطبيعة لهذا الغرض.

وحول مثل هذا الموضوع، أفضل أن أتكلم قليلاً وأعمل كثيراً. فإن الأهمية التي نالها هذا الموضوع في السنين الأخيرة، كانت إلى حد كبير أهمية فكرية أخذت صفة المجادلات، ولم تصطبغ بصبغة النشاط العملي كالرقص على سبيل المثال؛ فالرقص كغيره من أوجه النشاط الاجتماعي يتطلب حيازة قدر كبير من العادات البعيدة عن الأثرة.

وكثيراً ما نصحت الكثيرين، ممن يترددون علي، الذين يسعون وراء السعادة بأن يستخدموا أقدامهم أكثر مما يستخدمون رءوسهم، إن كان بلوغ الهناء بغيتهم.

حول قراءة الكتب المفيدة

أعطتني إحدى السيدات قائمة بها حوالي المائة وخمسين كتاباً، دونت على رأسها هذه الملاحظة "أنا لا أعير الكتب التافهة التفاتاً، ولا أطالع سوى الكتب التي تهذب عقلي، وتزيد معلوماتي الأدبية، وها هي قائمة الكتب التي قرأتها في مدى السنتين الأخيرتين"

والواقع أن الكتب الواردة بتلك القائمة كانت كلها من أفضل التراجم الشخصية والقصص والمقالات، وقد أثنيت على حسن اختيارها، ولكنيٍ سألتها إلى كم من لناس قد تعرفت، وأصبحت على صلة وثيقة بهم في بضع السنوات الأخيرة؟.

والواقع أن هذا السؤال قد أحرجها، لأنها لا تكاد تذكر أسماء خمسة أشخاص تعرفت عليهم حديثاً، ويمكنها أن تقول إنها على صلة بهم غير صلة التحية العادية.

وقد تبين لي أنها أمضت سنة كاملة بإحدى الكليات تدرس "الشخصية" وقد عرضت علي "دفتر محاضراتها" الذي يحوي عدداً كبيراً من الرسوم والبيانات التي توضح المحاولات التي بذلتها هي وبقية أفراد فصلها في سبيل قياس صفات الشخصية المختلفة. فسألتها "وكم عدد أفراد فصلك هذا؟" فأجابت قائلة "سبعة وثلاثون يبلغ عدد الذكور فيهم أكثر من النصف".

فسألتها "وهل كنت تتناقشين مع أحد طلبة الفصل في أي موضوع من هذه الموضوعات قبل أو بعد الدرس؟" فقالت إنها كانت تصل دائماً في الوقت الذي يبدأ فيه الدرس وتبارح الفصل عقب انتهائه مباشرة، ولذلك لم تكن لديها الفرصة كي تفعل ذلك.

كان أحد الدروس التي تعلمتها في هذه الدراسة أن تبتسم أكثر الأحيان، ولا عجب فالبسمة الحلوة لهي أحد العناصر القوية للشخصية الجذابة، وقد لاحظتها وهي تتكلم معي فوجدت فمها يتسع بانتظام حتى بدت أسنانها، والواقع أن النظرة المرتسمة على وجهها كانت سريعة آلية، ليس بها نصيب من السعادة أو الصدق. ولم يكن بوسعي في مثل تلك الظروف أن أناقش موضوع العناصر اللازمة للابتسامة الطبيعية. فبدأت أفسر لها بمنتهى ما أوتيت من اللباقة، المصاعب التي تصادف الإنسان لتكوين شخصية سليمة، إذا أصر هذا الإنسان على العيش وحده في فراغ غير محدود، وقد أشرت عليها بالانضمام إلى إحدى الجمعيات والاندماج في نشاطها الاجتماعي، وأن تتخذ دوراً إيجابياً فيما تؤديه نحو المجتمع، وأن نتعلم الرقص. ثم اقترحت عليها أن تتوقف كلية عن مطالعة الكتب أيا كان نوعها لمدة عام كامل وتقصر مطالعاتها على مجلتي "نيو يوركر" و"ريدرز دايجست"، وأن تقرأ كل يوم فصلاً كاملاً من الكتاب المقدس، وتتصفح أي صحيفة يومية. ثم نصحتها أن تنفق المال الذي كانت تبذله في دراساتها واستشاراتها للأطباء النفسيين فيما يختص بشخصيتها، في شراء ملابس لنفسها وإكمال زينتها الخاصة، وفي مختلف نواحي النشاط التي تتصل بمخالطتها لغيرها من الناس.

كانت هذه المرة واحدة من المئات بل الآلاف اللاتي يحسبن أن في وسعهن تحسين شخصياتهن بتركيز أفكارهن في أنفسهن. مثل ذلك، كمثل عقل المرأة عندما تجلس أمام مرآتها تحدق نحو وجهها، ما تكاد ترى "تجعيدة" في بشرتها، حتى تطيل النظر، وتمعن في التحديق وتقترب بوجهها من المرآة حتى تكاد تلاصقها، ثم تبدأ تفحص "التجعيدة" بعناية فائقة، وتتناول مرآة اليد، وتسرع نحو الضوء حتى يمكنها رؤية وجهها أكثر وضوحاً، وكلما أمعنت النظر وكلما زاد اقتراب وجهها من المرآة، زادت بشاعة التجاعيد، حتى تجدها أخر الأمر وقد اقتنعت تماماً أنها أصبحت عجوزاً شمطاء يتدلى أحد قدميها في القبر. ولو أنها قد أمضت هذا الوقت خارج بيتها، مع جمهرة من معارفها، فأغلب الظن أنه لن يلحظ هذه التجعيدة التي أزعجتها واحد من عشرة من الحاضرين.

حول الأخلاق والشخصية

إن الغرض الرئيسي من التربية هو بناء الشخصية، وتهذيب الأخلاق، ومع ذلك فأنت لن تجد إجماعاً واحداً بين المربين على تعريف للأخلاق أو للشخصية. وهذا النقض هو الضعف الأساسي لطرق التربية الحديثة، هذا الضعف الذي يؤدي إلى الفوضى والارتباك في نظم التعليم، إذ كيف تبلغ التربية أهدافها إذا لم تحدد هذه الأهداف؟

فإذا قال الناس عن فلان أنه ذو أخلاق طيبة فهم إنما يعنون أنه أمين لا يسرق، صادق فيما يقوله، متزن في عاداته. وقد يكون مع ذلك

غبياً لا أثر له في معترك الحياة ولا ينفع أحداً، أي يكون مفتقراً إلى ما نعنيه عندما نقول إن هذا الشخص ذو شخصية فذة.

ويكاد يجمع رجال علم النفس على أن التعريف الصحيح للشخصية هو أنها مدى استعداد المرء لتحويل قدرته وطاقته إلى مآثر وعادات تكسبه حب الناس.

فالفتاة التي إذا داعبت أناملها البيانو طرب غيرها لهي ذات شخصية أفضل من الفتاة التي لا يمكنها ذلك. والصبي البليد غير الجذاب الذي يجيد لعب التنس يصير أشد جاذبية خلال لعبة، وتوفر له مهارته في اللعب حاجته من الأصدقاء الذين لم يكن في إمكانه التعرف عليهم لو لم يكن يجيد لعب التنس. والرجل والمرأة اللذان قد اكتسبا عادات تسلية الغير ومد يد المساعدة إلى الناس لا حاجة بهما أن يقلقا إذا كان الأول أقل من أدونيس[٢١] جمالاً وإذا كانت الثانية دون فينوس[٢٢] فتنة.

فالواقع أن المهارة المكتسبة في كل من ميداني اللعب والعمل هي التي تكون الشخصية وتمنح المرء الجاذبية والتأثير. وكثيراً ما كان يصارحني أحد مرضاي قائلاً:

([٢١]) أدونيس صياد في أساطير الاغريق جاء في وصفه أنه كان جميلاً كالكأس المترعة، وله وجه أبيض كالحليب، تتدفق الخمر في دمه وتكمن في عينيه وتنثال على لسانه.
([٢٢]) فينوس ربة الجمال والحب في أساطير الاغريق.

"إذا كان الناس لا يحبونني لشخصي، بل لما يمكنني أن أفعله وأؤديه، فإني أفضل ألا يحبوني على الاطلاق".

إن مثل هذا الاتجاه يبين فشل الإنسان الذريع في فهم طبيعة الشخصية. فرب فرد جذاب كالصورة، ولكن الصورة ليست هي الشخصية اللهم إلا إذا تحركت وأدت عملاً ما.

ولهذه الأسباب مجتمعة عرف علماء النفس صفات الشخصية بالنسبة للانبساط، ودرجة القدرة الاجتماعية، والاكتفاء الذاتي، والاتزان العاطفي، وأمثال هذه العادات. ومهما كان نوع التعريف أو الاختبار المستخدم، فإن وحدات القياس تكون دائماً أما العادات المكتسبة، أو الاتجاهات والميول التي تمثل مجموعات من العادات، فالأمانة على هذا الأساس هي صفة من الصفات التي يصعب جداً قياسها، ولكنها تعتبر إحدى العادات الانبساطية طالما هي تمثل مراعاة حقوق الغير. والكد والنشاط كذلك من الصفات التي يصعب قياسها، ولكن إذا كان المرء قد تعلم أن يبذل جهوده وطاقته، خلال عادات نافعة كثيرة، فهو يكون أكثر نشاطاً وكداً من ذلك الذي يكتنز جهوده ويدخرها.

وليس هناك أية غضاضة، في أن يقال رغم ذلك أن التاريخ ملئ بعدد وفير من الشخصيات الفذة، وذوي الأخلاق الفريدة، ممن لم يكن للدين تأثير عليهم، ومع ذلك فما زال هناك سؤال سيظل دون إجابة

وهو: ما هي المبادئ أو القيم الاساسية التي تساعد أكثر من غيرها على الحصول على الشخصية الجيدة؟

ولا أظن أحداً ينكر أن أعظم الشخصيات الملحدة في التاريخ كان يسيطر عليها ويحركها هدف ما، أو مثل أعلى، جرفها بعيداً عن ذاتها بل جعلها تقترب كثيراً من معتقدات الدين البالغة السمو.

إنما نحن من يصنع الأطفال

"ولكن كل تأديب في الحاضر لا يرى أنه للفرح بل للحزن. وأما أخيراً فيعطي الذين يتدربون به ثمر بر للسلام. لذلك قوموا الأيادي المسترخية والركب المخلعة. واصنعوا لأرجلكم مسالك مستقيمة لكي يعتسف الأعرج بل بالجري يشفى"

الرسالة إلى العبرانيين ١٢: ١١– ١٣.

بينما كنت عائداً مع زوجتي بالقطار من "فورست هيلز"، حيث كنا نشهد مباريات التنس في إحدى أمسيات شهر سبتمبر الحارة، تطرق بنا الحديث إلى موضوع حضور الأطفال الدروس الدينية، وكان السؤال الذي لا يفتأ يراود ذهننا هو: هل نرسل ولدينا اللذين بلغ أحدهما الرابعة والآخر الثانية، للاستماع إلى هذه الدروس أم لا؟ فقد كنا في صغرنا – سواء أنا أم زوجتي– نساق قسراً لا إلى هذه الدروس فحسب، بل إلى الكنيسة بالمثل. وبطبيعة الحال كنا كثيراً ما نثور ونعترض على ذلك، ولكنا كنا نرضخ في النهاية إزاء إصرار آبائنا المتدينين. ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقط، بل كانوا يحتمون علينا مرافقتهم كلما توجهوا في احدى المناسبات إلى الكنيسة أو الجمعيات الدينية. وقد اعتدنا في بيوتنا أن ندعو الله قبل كل وجبة، ونصلي صلاة خفيفة، كما كنا نشترك

في جميع الصلوات اشتراكاً فعلياً يقرأ كل منا فيها جزءًا من الكتاب المقدس، ثم ننحني راكعين في خشوع وراء رب الأسرة الذي كان يؤمنا في الصلاة.

وما كدنا ندخل الجامعة حتى طرحنا تلك القيود جانباً، ولم نتحرر من هذه الأنظمة الدينية فقط، بل إن الثقافة التي كنا نتلقاها ونتزود بها قد حررتنا عقلياً منها فأدركنا، تحت ضوء العلم الحديث مدى تفاهة الكثير مما ورد بالإنجيل، أما تلك الشكوك التي كانت تراودنا قبل الانضمام إلى الجامعة فقد أصبحت تنال من تفكيرنا قسطاً أوفى، وتحتل من أذهاننا مكاناً أوسع، بعد أن أضفنا إليها أيضاً عدداً كبيراً من العناصر الدينية التي لم يسبق لنا التفكير فيها، أتينا بها كلها، ووضعناها تحت عدسة مجهر الأبحاث العلمية والتاريخية، ومن ثم تمخضت عن آراء وأفكار بدأت تحتل تلافيف عقولنا الصغيرة.

وفي النهاية، توصلنا إلى أن عناصر الدين الملموسة المحسوسة كالكنيسة وأقسامها المتعددة، وما يتبعها من المذاهب والعقائد، وتقسيم الناس إلى فرق دينية مختلفة. كل هذه الاجراءات إن هي في الواقع إلا أخطاء، وليدة الخرافات التي استنبطتها عقول قاصرة، عند محاولتها تفسير الجوهر الروحي للدين.

كان هذا فيما يختص بالعناصر المادية الملموسة، وبقي الآن من الدين ذلك الجانب المعنوي، ذلك الجوهر الروحي غير الملموس ذلك

الإله الذي تجرد عن أي مظهر أو أي ارتباط مادي ملموس عن طريق سلوكنا اليومي أو النظم التي شببنا عليها. هذا الجانب بالذات قد أطلقوا عليه اسم الإيمان الروحي بالله.

والواقع أن هذا الجانب كان من الوجهة العلمية حقيقة معنوية، ومجرد فكرة عقلية، أشبه بتلك التي توصل إليها العالم الطبيعي في تحليله للمادة. فبينما نجده يبدأ أبحاثه من أساس واضح ملموس، وأعني به حقائق المادة، إذ به يتوصل في نهاية الأمر، عن طريق العناصر والذرات والجزيئات وحبيبات الأثير، إلى تعريف مجرد غير ملموس، وأعني به أن المادة تتآلف من ذرات عديدة في حركة دائبة. فبعد أن شرع علماء الطبيعة أبحاثهم مستندين على شيء معروف ملموس، تراهم قد انتهوا إلى لا شيء، أو إلى ما هو بالنسبة لإدراكنا المادي أتفه مما ابتدأوا به.

وهكذا بدأنا نحن وغيرنا، بتراث جوهري – وإن لم يكن مصدر راحة لنا – أقول بدأنا بتراث جوهري من العادات والتقاليد الدينية التي ساعدتنا على تصور الله في صورة معنوية مجردة، ربما كانت الذرات العديدة ذات الحركة الدائبة ... من يدري؟

وقد بلغت قدرة بعض التلاميذ حداً بعيداً في هذا المضمار، وأعني به، تصوير الله في صورة إنسان، وتحويل كا ما هو مادي ملموس في الدين إلى مستوى التفكير المجرد، حتى لم يتبق لهم آخر الأمر معتقد

واحد ملموس يعتنقونه. وأصبحوا كالكثيرين من أساتذتهم من كبار الملحدين والمتشككين. أما بقية التلاميذ، فكانوا من الغباء، أو أقل من المناعة بمكان، بحيث كانوا يصمدون أمام كل المعاني والتفسيرات التي كانوا يتلقونها بالمعهد. وظلوا على إيمانهم بتلك المبادئ والأنظمة الفجة التي اكتسبوها منذ طفولتهم المبكرة. وهنا يمكنني أن أقرر، وأنا جد واثق من مدى صحة قولي، أن تحرر الطلبة من العقائد الدينية كان يتناسب تناسباً طردياً مع رقم ذكائهم القياسي. فكلما ارتفعت نسبة الذكاء، أدركوا تفاهة الدين وسخافاته.

وبعد أن نلت وزوجتي إجازة الفي بيتا كابا، كان عقلانا قد تشبعا إلى الحد الذي أصبحنا به من كبار الملحدين. وإن كان بنا ثمة إيمان بالله، فكان أضعف أنواع الإيمان وأشدها هزالاً. وطبيعي أن هذا الضوء الخافت من الإيمان لم يكن يمت بأي صلة للكنيسة أو لعظاتها، التي أصبحت لفرط سخافتها تعافها أنفسنا. ولا غرو فقد كنا نعتبر نفسينا فوق هذه المساخر.

وفي النهاية، خلصت من حديثي مع زوجتي ونحن لا نزال بالقطار، إلى أننا لن نحاول أن نشجع ولدينا على الذهاب إلى الدروس الدينية، ولن نرغمهما على الامتناع عن حضورها، بل ندعهما يفعلان ما يريان بأنفسهما صائباً، إذ لا داعي لتكرار تلك العقوبات الصارمة التي كان آباؤنا يوقعونها علينا. ولندع أطفالنا يفعلون ما تشير به عقولهم، فإن شاءوا الاستماع إلى هذه الدروس فليذهبوا، وإلا فليفعلوا ما بدا لهم.

والواقع أن كلينا كان جد مغتبط بهذا القرار الذي يتمشى مع أسلوب عصرنا الحديث، ومع ذلك الذي يسمونه في علم النفس بالتعبير عن الذات.

كنت أنا وزوجتي أحد أولئك الأزواج العديدين الذين توصلوا في ذلك الوقت إلى مثل هذا القرار، فقد سمعنا الكثيرين من الآباء يرددون أنهم لا يبعثون بأولادهم إلى الدروس الدينية أو إلى محلات العبادة، حتى يصلوا إلى السن التي يدركون عندها ما يجري حولهم. غير أن ما يضايقهم، ويقض مضجعهم هو هذا السؤال: ترى هل سيكتسب هؤلاء الأولاد ذلك الشعور القوي الذي يمكنهم به أن يميزوا بين الخطأ والصواب؟ هل سيؤمنون بتلك المثل الخلقية الواضحة التي آمنا بها منذ طفولتنا؟

لقد قلنا فيما مضى أن بعض الأعمال خطأ والبعض الآخر صواب، لأن الله سبحانه وتعالى قد بين ذلك، أو لأن كتابه قد أورد ذلك بمعنى آخر. وقد تكون هذه الطريقة فطرية بدائية، غير أنه مما لا شك فيه أن تأثيرها كان طيباً، فقد عرفنا على الأقل الكثير عن طيب الأفعال وخبيثها. أما الآن فإننا لا نقول لأولادنا إلا أن هذا التصرف خطأ وإن ذاك صواب، لأننا نرى ذلك، أو لأن المجتمع قد اتفق على ذلك. فهل لهذا الرد من القوة والبيان ما لسابقه؟ وهل له مثل أثره؟

وهل سيكتسب أطفالنا القيم الخلقية الأساسية للحياة دون الحاجة إلى ضغط العقائد الدينية، تلك القيم التي نتقبلها ونسلم بها حتى بعد أن أصبحنا لا نسلم بمصدرها الإلهي؟

الواقع أني بت لا أستطيع أذكر عدد المرات التي كان يطرح فيها هذا السؤال، ولا الطرق التي كان يزج بها الآباء ذوو العقيدة الدينية الموروثة والثقافة الحديثة، هذا السؤال خلال المناقشة. غير أني أذكر جيداً أننا بدأنا نحس مسئولية الأبوة التي على عاتقنا، وأننا لم نكن على استعداد للإجابة على هذا السؤال. ومهما كان نوع الإجابات التي صدرت عنا، فقد كنت موقناً أنها كلها خاطئة، بل خاطئة من جميع النواحي: النفسية والفلسفية والعقلية.

إن تربية الأطفال لمن أشق الواجبات وأخطرها وأدقها، ومشاكلها شديدة التعقيد والعسر، وهي بعد ذلك ذات أوجه متناقضة عند حلها حتى إن الآباء يكونون في مسيس الحاجة إلى أي معونة خارجية، مهما بلغت درجة تواضعها وبساطتها.

وقد كان طبيعياً، بعد أن استغنى الآباء المستنيرون عن المعتقدات الدينية، وضربوا بها عرض الحائط، أن يولوا وجوههم شطر مصدر جديد من مصادر المعونة، فلم يجدوا أمامهم سوى علم النفس الخاص بالأطفال.

ولكن علم نفس الأطفال لم يكن بعد، على استعداد لتقديم المعونة لهم، لأن الثقة بهذا العلم لم تكن قد تعدت الثقة النظرية حتى ذلك الوقت. وكان البرهان العلمي حينذاك في مهده صغيراً رغم تعدد نظرياته.

ومن هنا بدأ الآباء يعتنقون هذه النظريات التي كان أبرزها أن العقوبة البدنية ضارة من الوجهة النفسية، وأنه من الأفضل إقناع الطفل بعمل شيء ما عن إرغامه بالقوة والعنف عليه، وأنه لا يجوز كبت الطفل بل على العكس يجب منحه الفرصة كي يعبر عن ذاته، وأن استخدام الطفل ليده اليسرى على الدوام ليس إلا حركة وراثية، وأن الطفل يولد وله رقم ذكاء قياسي أو مستوى ذكائي لا يمكن تغييره بأي حال من الأحوال، وأنه يجب منح الأطفال علاوة منتظمة حتى يمكنهم إدراك قيمة المال، وأن بعض الأطفال يولدون بطبيعتهم عصبيين أو ذوي حساسية مرهفة، وعليه فلا يجوز إرغامهم على أن يفعلوا ويعملوا ما يفعله غيرهم.

وللأسف، لم يظهر أي برهان علمي أو نفسي يؤيد هذه النظريات، بل بالعكس ثبت أن كل هذه النظريات خاطئة؛ فاستخدام اليد اليسرى ليس حركة موروثة بل مكتسبة من الأفعال التي يأتيها الطفل أبان تدريبه المبكر. أما بخصوص العقوبة البدنية فقد أجمع معظم المشتغلين بعلم نفس الأطفال على أنه ليس مسموحاً بها فحسب، بل أنها أنجح الوسائل أثراً في بعض الأحيان مع الطفل، وأقل ضرراً من المناقشة الطويلة والإقناع المتواصل كما أن استخدام الآباء للأوامر القاطعة الجبرية

والسلطة التي لا ترد، يعتبر عنصراً لا غنى عنه عند تربية الأطفال. كما أنه ليس بصحيح أن رقم الذكاء هو المقياس المؤكد لقدرة الطفل العقلية، إنما هو مقياس تقريبي لما يمكن للطفل أن يأتيه في المحيط التعليمي السائد. وعلاوة على ذلك فكثيراً ما يؤثر تدريب الطفل وبيئته، سواء كانا صالحين أم فاسدين، في رقم الذكاء، ويغيرانه عما كان عليه وقت قياسه، فقد بلغ رقم ذكاء بعض الأطفال ذوي الآباء المرتفعي الذكاء ١,٥٠ ثم هبط بعد خمسة أو عشرة أعوام إلى ١,٢٥ أو ١,٠٠ أما تلك العلاوة المنتظمة، فبالرغم من أنها قد تعطي الطفل حقاً، فكرة عن قيمة المال، إلا أنه من الميسور جداً أن تشجع فيه عادة الكسب بدون عناء. كما أن المبالغة في تأكيد أهمية التعبير عن الذات، تلك المبالغة التي يغذيها ويقويها الرغبة في التعليم التقدمي، تؤدي إلى الفوضى العقلية الخلقية.

والتعبير عن الذات في الحقيقة، أمر ضروري مرغوب فيه، إنما يختار لذلك الفرص المناسبة، وما تلك الفرص إلا النظام والعادات المصطلح عليها بين الناس ليعيشوا سوياً يسودهم التآلف والانسجام.

وقد أخذت أقوم بالتجارب في السنوات الثلاث الماضية لاستنباط اختبار للأطفال بين العاشرة والثامنة عشرة، لقياس صفات معينة من الشخصية أو العادات، على نمط اختبارات مشابهة اكتشفها بعض علماء

النفس لتطبيقها على الكبار(٢٣)، أما الصفات التي يقيسها هذا الاختبار فهي:

الانبساطية: أو عادة الانتباه إلى الغير والالتفات إلى ميولهم وعادة إنماء المهارة والمناقشة في وجوه معينة من النشاط.

القدرة الاجتماعية: أو عادة التسابق إلى مقابلة الناس والتعامل معهم.

التحكم في الذات: أو عادة إخضاع المرء ميوله الدافعة لهدف أسمى.

التحكم الاقتصادي في الذات: أو عادة الكد والعمل في سبيل اكتساب المال أو أي هدف آخر له قيمة المال.

المعاملة الصحيحة بالنسبة للجنس الآخر: أو عادة مقابلة أعضاء الجنس الآخر والتعامل معهم.

وقد طبق هذا الاختبار على ألفي طفل، وأجرى عليه تحليل إحصائي دقيق، واختبر مراراً بمهارة، وتمخضت نتائج هذا الاختبار عن

---

(٢٣) بعد أن فرغ المؤلف من هذا الاختبار سمي اختبار لنك للشخصية Link Personality Quotient Test وقد طبق في مئات المدارس بالولايات المتحدة كمتمم لاختبار الذكاء، وقد أوسعه المؤلف تفصيلاً في كتابه الحديث The rediscovery of man.

أن العادات التالية يجب أن تكون على رأس قائمة العادات المهمة الملازمة للشخصية.

١- الاستماع إلى الدروس الدينية، ومواظبة الوالدين على الذهاب إلى معابدهم. وقد بين الاختبار أن الأطفال الذين يتصفون بهذه الصفات كانوا أكثر انبساطاً وأرقى اجتماعاً من زملائهم الذين يفتقرون إلى هذه الصفات. فإن مجرد مواظبة الآباء على الذهاب إلى المعبد كان عاملاً مهماً في إنماء صفات الشخصية المرغوبة في أولادهم. وكانت مداومة الأطفال على الاستماع إلى الدروس الدينية، أحد العوامل المهمة في ذلك.

٢- أن الأطفال المنضوين تحت لواء جمعية ما، مدرسية كانت أو غير ذلك، والمنتمين إلى أحد النوادي والمشتركين في جوقة موسيقية أو فرقة تمثيلية إلى آخره، والمواظبين على حضور أوجه النشاط المدرسي كالمسابقات الرياضية والرحلات والتمثيليات والمناظر كانوا أكثر انبساطاً وأرقى اجتماعياً من أولئك الذين ليس لهم هذا النشاط.

٣- إن أولئك الأطفال الذين يعملون ما لا يحبون، لا لسبب إلا لأنهم يرون أنه لابد لهم أن يعملوه وأولئك الذين يحاولون أن يفعلوا كل شيء حتى لو كان لا يمكنهم إجادة هذا الشيء، وأولئك الذين ما أن يفطنوا إلى ضعفهم في ممارسة شيء ما حتى يجاهدوا جهاد الأبطال في سبيل تحسين أنفسهم، وأولئك الذين إذا كان أمامهم عملان، يحبون

إتيان أحدهما ويعافون الآخر، فيبدأون بذلك الذي تعافه أنفسهم، وأولئك الذين يفعلون كل ما يكرهون لأن ذلك يساعدهم على بلوغ مناهم وتحقيق مطامعهم، كل أولئك الأطفال الذين يتصفون بهذه الصفات والميول يكونون أكثر انبساطاً وأشد تحكماً في أنفسهم ممن تنقصهم هذه الصفات.

وعلى العكس من ذلك فإن أولئك الأطفال الذين لا يفتأون يقولون: أنا عاجز عن فعل هذا الشيء أو أنا لا أجيد ذلك الشيء، وأولئك الذين سرعان ما يفقدون صبرهم فيحجمون عن المحاولة مرة ومرات بالنسبة لبلادتهم أو لارتباكهم، وأولئك الذين يرفضون الاشتراك في أي لعبة رياضية لأنهم لا يجيدونها، كل أولئك تجدهم أشد انطواءً وأكثر خضوعاً من الناحية الاجتماعية عن زملائهم.

وعلى قمة العادات المؤدية إلى الانطواء والخضوع الاجتماعي والاعتماد على الغير، فقدان المرء لأعصابه بين وقت وآخر، وتجهمه وعبوسه إذا أتت الرياح بغير ما تشتهي نفسه، والمبالغة في تفسير الأحداث العادية وكثرة اللغط حولها، ومقابلة الهزيمة بالحزن والاكتئاب، والانشغال بالتفكير فيما يرتكب من أخطاء. كل هذه الصفات إذا ما تمكنت من الطفل حرمته من اكتساب صفات الشخصية المحبوبة، والعادات المرغوبة، بل تصبح في الواقع أهم المصادر الأساسية لتولد الشعور بالنقص، وعدم الاتزان العاطفي في الطفل، في حين أن الصفات

التي أوردناها من قبل لهي مصدر تولد الشعور بالسمو والعظمة والاتزان العاطفي.

كما أن عادات انتقاد الغير والجري وراء أخطائهم، وقطع سياق الحديث، والمبادرة بلفظ كل ما يخطر بالبال بدلاً من كبت هذا الحافز الذي قد يجرح شعور الغير، كل هذه العادات من العوامل المهمة المؤدية إلى تكوين الشخصية الخاضعة اجتماعياً وخلق الشخصية المفرطة الحساسية كلما انتقدها الغير.

أما الطفل الذي اعتاد أن يزجي المديح والإطراء، وأن يقول ما يعتقد أنه يدخل السعادة والسرور إلى قلوب الغير، أو يحاول أن تكون صلته ودية مع كل الناس سواء كان يميل إليهم أو لا يميل، والذي اعتاد على أن يحكم شعوره ويضبط نفسه حتى لا يظهر للناس أنه يغلي في داخله. أن مثل هذا الطفل تجد صفات شخصيته في منتهى الارتفاع، ولا يضايقه انتقاد الناس له أو يؤثر عليه على الإطلاق.

وشخصية الطفل الذي يستسلم للنعاس بمجرد رقاده بالفراش تكون أفضل من آخر، ما يكاد يستلقي على فراشه حتى يسترسل في التأمل والتفكير، وكذلك الأطفال الذين يشتركون في كثير من الألعاب والمباريات الرياضية وخصوصاً أولئك الذين يشتركون باستمرار في عدد بسيط من الألعاب أو يشتركون في ألعاب "الجمباز" التنافسية يكونون أحسن شخصية ممن لا يفعلون.

كما أن الأطفال الميالين للرياضيات والعلوم بما في ذلك الفن الميكانيكي وفن إدارة البيوت أفضل شخصية من الأطفال الذين يفضلون اللغات والتاريخ.

وقد ثبت أن منح الأطفال علاوة دورية منتظمة من الآباء كي يعتادوا الادخار ليس له أي أثر على شخصية الطفل. أما الأطفال الذين يبيعون الصحف والتذاكر في أوقات فراغهم وينضمون إلى جوقات التمثيل والغناء ويحاولون البحث عن عمل، بصرف النظر عن ميلهم إلى نوعه، في سبيل كسب المال يكون الأمل في اكتسابهم صفات الشخصية المرغوبة أكبر من أولئك الذين لا يفعلون..

وأخيراً أحب أن أقرر ألا علاقة هناك بين مستوى الطفل بالنسبة لصفات الشخصية التي يقيسها هذا الاختبار، ومستواه في دراسته، أو ذلك الذي يسمونه اختبار الذكاء العام. وقد وجد نفر من رجال علم النفس أيضاً ألا علاقة هناك بين النجاح المدرسي والشخصية الجيدة.

مثل هذه الاختبارات المتقدمة، ومثل هذا التحليل للعادات المرادفة للشخصية الجيدة هي في الواقع المحاولة التي حققها رجال علم النفس، في حين أهملها العلماء في محيط التربية والتعليم، وأعني بذلك أن علماء النفس نجحوا في ترتيب وجمع العادات والعناصر التي تدخل ضمن تركيب الشخصية الناجعة، بينما لم يحاول علماء التربية والتعليم غير ترتيب وجمع علوم الهندسة والحساب والهجاء والقراءة

وكل تلك الموضوعات المفروض أنها تؤدي إلى تكوين العقل الكامل. فهناك المئات من الموضوعات والآلاف من الكتب التعليمية، والكثير من الدراسات التي تبين الأساس والنظام الذي يقوم عليه التعليم العقلي، وهو لا شك أساس ضخم من ناحية الحجم والتفصيلات ودرجة الفهم والاستيعاب، ولكن ميدان الشخصية وتكوينها يكاد يخلو من مثل هذه المجهودات.

فالعقول لا تولد بل هي تكتسب بالمران، وكذلك الشخصية يصقلها التدريب، ويهذبها، ولو أننا في حاجة إلى مكتبة علمية تبحث في ميدان الشخصية، أو أن الكتب السماوية هي أعظم وأصدق المراجع التي تبحث في هذا الموضوع. وقد أكدت مكتشفات علماء النفس هذه الحقيقة بدلاً من محاربتها، ويختلف علم النفس عن كل العلوم الأخرى في هذه النقطة المهمة؛ فبينما تقول بقية العلوم أن أفكارنا القديمة ومعتقداتنا عن الطبيعة خاطئة، إذا بعلم النفس يقرر لنا أن أغلب السنن القديمة ونواميس تكوين الشخصية الناجعة والخلق القويم لهي الصواب بعينه.

والواقع أن المفتاح الذي يفتح أقفال هذه العناصر والعادات التي بها تتكون الشخصية الناجعة والتي أتت ضمن هذا الاختبار، هو أن الطفل يستطيع تكوين شخصية ناجعة وإنماءها أو على الأقل تشييد صرح هذه الشخصية، إذا ما اعتاد أن يعمل كل ما يتعود على أدائه بطبعه، وكل ما لا يحبه أو يميل إليه. فاستعمال الشوكة والسكين قد

يصبح لديه أمراً طبيعياً أو لطيفاً بمرور الزمن، ولكن ليس قبل أن يبذل أبواه من أربع إلى ثماني سنين، في جهد متواصل لتلقينه أصول استعمالها الصحيح.

وبدهي أن الأطفال يختلفون، سواء بطبيعتهم أو بحسب وراثتهم، ولكن مهما كانت هذه الطبيعة أو الوراثة طيبة، فإنه لا يمكن غرس العادات الأساسية بغير النظام. ولما كان استياء الطفل من النظام واتجاهه اتجاهاً عكسياً كلما حاولت إنماء العادات الطيبة فيه أمراً لا مفر منه، كان استخدام أي وسيلة ذات تأثير منتج أو صفة إرغامية، تساعد على الإسراع في اكتساب هذه العادات أمراً واجباً. والواقع أن معظم الآباء يكونون في أشد الحاجة إلى الاستعانة بنصائح غيرهم، أثناء عملية غرس العادات المرغوبة في أطفالهم.

وإذا بحثنا من الناحيتين العقلية والنفسية، لوجدنا أن أعظم مصادر هذا العون هو الدين. فالإيمان بوجود الله ورسله وكتبه يهيئ للأبوين ملجأ آمناً موثوقاً يلجئون إليه، ويضع بين أيديهم سلطة كبرى على أطفالهم كانوا يفتقرون إليها حتماً لو لم يؤمنوا بها.

فإن أولئك الآباء الذين كانوا يتساءلون كيف ينمون ويشكلون عادات أولادهم الخلقية، بينما ينقصهم هم أنفسهم تلك التأثيرات الدينية التي كانت قد شكلت أخلاقهم من قبل كانوا في الحقيقة يجابهون مشكلة لا حل لها، فلم يوجد بعد ذلك البديل الكامل الذي يحل محل

تلك القوة الهائلة التي يخلقها الإيمان بالخالق وبناموسه الخلقي الإلهي في قلوب الناس.

فتجد الآباء الذين تحرروا من الإيمان عن طريق ثقافتهم وأعمال فكرهم حيارى متسائلين على الدوام. إذن كيف يكون أولئك الحيارى مسئولين عن أولادهم؟

ففي حالة عدم وجود مثل هذا الملجأ الديني الموثوق به، لا يسع كل أب إلا أن يفكر ويمعن في التفكير، ويبحث ويطيل البحث، قبل أن يبين لطفله مدى الخطأ والصواب، والخير والشر، في كل حالة من الحالات العديدة التي تقع يومياً، وفي كل عادة من العادات المختلفة التي يود غرسها في طفله. وكلما كبر الطفل ونما، وكلما أصبح واقعاً تحت تأثير سلطات المجتمع المتضاربة المقاصد المختلفة الميول والاتجاهات – كالمدرسة والجيران وزملائه وبلدته – زاد الأمر صعوبة وأصبح أشد تعقداً؛ فالتربية واجب شاق، كما أن هذا الارتباك الكائن في عقول معظم الآباء هذه الأيام، لخير شاهد على صدق هذه الحقيقة.

فالدين هو القوة الوحيدة التي يمكنها أن تعين الإنسان على حل تلك المشاكل الخلقية والعقلية التي لا مفر منها، والتي لا تفتأ تقض مضاجع الآباء والأبناء والمجتمع كله. ولن تجد في هذا العالم المضطرب، الذي لا تمضي فيه فترة حتى يثور الناس على السلطة القائمة

محاولين تغييرها، غير الله وحده هو الحي الباقي الذي لا يتغير ولا يتبدل.

فذلك الطفل الذي اعتنق منذ طفولته المبكرة فكرة وجود الله كالمشرع الأعلى للخير والشر، إنما قد اكتسب الحافز الجوهري الذي سيدفعه حثيثاً نحو العادات الطيبة. فبدلاً من أن يقوم صرح أعماله على ما يحبه وما لا يحبه، نراه يقوم على الصواب والخطأ، فهو قد يرى عدم إطاعة أمه يوماً ما، ولكنه يدرك جيداً أنه قد أخطأ، وهو قد لا يحب أن يعيد لأمه ما تبقى معه من نقود بعد أن اشترى لها طلبها، ولكنه يعلم تماماً أن ذلك ليس بالصواب، وهو قد لا يحب أيضاً أن يتنازل عن أنانيته مع زملائه في اللعب، ولكنه يرغم نفسه على أن يفعل ذلك.

وطبيعي أن مثل هذه الطريقة ليست من السهولة أو البساطة بمكان، ولكنها سرعان ما تنمي فيهم عادة التمييز بين الدوافع الأنانية والشخصية، وبين العادات الطيبة، أو بالاختصار بين اللذة وبين الشعور بالواجب.

فمما لا شك فيه أن تغلب المرء على كسله وبلادته، وقهره لدوافعه الطبيعية الكامنة فيه، لهي الطريقة الصحيحة لاكتسابه العادات اللازمة للشخصية الناجحة. فبقدر ما يفرضه الدين على الطفل من هذه الصفات الطيبة التي ينبغي له تعلمها، يمضي الطفل حثيثاً إلى اكتساب صفات الشخصية الفاضلة.

وقد أدلى إليّ كثير من الآباء بما يعانيه أطفالهم من كسل طبيعي، ولا شك أن مرجع ذلك عند بعضهم أسباب طبيعية. أما الحيوية والنشاط فعادات مكتسبة لا علاقة لها ببنية الإنسان. فبقدر مهارة الطفل في أداء أشياء كثيرة، تتحول حيويته البدنية إلى أفعال ونشاط، ومن ثم يتغلب على كسله.

وكثيرون هم الآباء الذين ما فتئوا يشكون إليّ أن أبناءهم عصبيون بالسليقة، وغالباً ما يفقدون التحكم في أعصابهم. وهنا أيضاً قد تتحول مثل هذه الميول الطبيعية إلى اتجاهات أفضل وأشد نفعاً، حتى أنه قد يصل الأمر بالطفل حداً يجعله يجيد ما يؤديه من عمل، أو يحذق أي لعبة يمارسها. فإن التعاليم الدينية التي تبين الخير والشر، وقدرة المرء على التغلب على نفسه وقهرها، وضرورة بعث الإنسان المتواصل لنفسه من جديد – وهو الموضوع الذي سبق الحديث عنه – تبلغ ذروتها في الأهمية، خلال سني الطفولة التي يسهل فيها الخلق والتشكيل.

ومهما بلغت المساوئ التي نلمسها في أماكن العبادة والاستماع إلى العظات الدينية، فإن هذه البيوت تساعدنا على غرس الأسس السليمة للخطأ والصواب، والأعمال الأنانية واللا أنانية في نفوس الأطفال. كما أنها تساعد على غرس الإيمان بالله، والاعتقاد في ناموسه الخلقي الإلهي كمصدر لتلك الأسس. ولذا فهي ذات فائدة عظمة للآباء والمجتمع، كي يبثوا الأسس الضرورية لتكوين الخلق القويم والشخصية الناجحة. وعلى ذلك، ليس من المستغرب أن نرى الاختبار السابق الذكر

يدلنا على أن الطفل الذي يستمع إلى الدروس الدينية يتمتع بصفات شخصية أفضل ممن لا يحضرها، وأن الطفل الذي يذهب والداه إلى المعبد، لذو شخصية أحسن من الطفل الذي لا يذهب والداه إليه.

وقد اتضح، بعد دراسة كاملة لعشرة الاف شخص، أن أولئك الذين يواظبون على الذهاب إلى محلات العبادة، كانوا ذوي صفات شخصية أفضل ممن لا يذهبون.

وليس موضوع تهذيب الشخصية الذي نحن بصدده هو قمع المرء لذاته كما يظن البعض، بل هو في الحقيقة التعبير عن الذات والإفصاح عن النفس. فإن مجرد قمع المرء ذي الأعصاب المتفجرة مثلاً، لدوافعه الطبيعية، لا يعد من الوجهة النفسية إجراءً سديداً. فالمبالغة في ترديدك لطفلك عبارة "لا تفعل هذا، أو ذاك" هو أمر ضار بلا شك. ومع ذلك، فليس هناك ما يمنع أن يتضمن أسلوب تربية الطفل بعض الكبت المباشر الذي لا خطر فيه، ومع هذا فإن الجانب الموجب من الشخصية يشمل تعبير المرء عن ذاته وإتقانه لعدد كبير من الأعمال المرغوبة.

أما التعبير عن الذات في رأيي، فمعناه استبدال الأعمال والعادات غير المرغوبة بين الناس، بأخرى مرغوبة بينهم.

أما الخطأ الذي تردت فيه حركة التربية التقدمية، فهو أنها لم تحاول أن تضع أو تبين أي أنواع التعبير عن الذات هي المرغوبة وأيها غير المرغوبة. فقد افترض أصحاب هذه الحركة، دون تساؤل كبير، أن

كل ما يرغب الطفل في التعبير عنه يستحق منا التشجيع، وبذلك رفعوا مبدأ التعبير عن الذات إلى مرتبة التقديس، على حساب الطريقة التي بها يعبر الطفل عن ذاته. فكانت النتيجة الحتمية لذلك أنهم خلطوا ما بين التعبير عن الذات، والإغراق في الاهتمام بالرغبة الذاتية، وكذلك ما بين إضاعة الوقت سدى واعتقاد الكبار في وجوب تعبير الأطفال عن أنفسهم في حدود أشياء معينة كالفنون والتمثيل ومشاهدة الحفلات المسرحية والاستعراضات إلى آخره. بينما عجزوا عن أن يدركوا تماماً أن التعبير الذاتي الناضج، والقدرة على الإنشاء والابتكار، يتوقفان على معرفة الأصول الجوهرية، لكيفية التعبير عن الذات، تماماً كما تتوقف المهارة في عزف قطعة موسيقية على إلمام من يلعبها إلماماً شاملاً بالسلم الموسيقي.

فالطفل الذي يرغم على التمرين على البيانو، وأداء بعض التمرينات رغم إرادته، يكتسب في الواقع ألف باء التعبير الموسيقي، أما الطفل الذي يُسمح له بالتمرين كما يشاء، ورسم الصور التي يرغب فيها، والانسياق وراء كل ما تشتهيه نفسه، متوسعاً في تعدد أوجه نشاطه إنما هو في الواقع يضيع الوقت الذي كان به يمكنه حذق عدد محدود من الكفايات الجوهرية.

ولا عجب، فإن التدريب الإجباري على عادات التعبير الذاتي المرغوبة، كتلك العادات التي سبق اقتراحها في الاختبار السابق الذكر، يوسع مدى التعبير الذاتي المفيد في المستقبل.

وأسوق للقارئ الآن بعض المختارات مما قد يقدمه والد إلى ولده في سن السادسة عشرة من نصح وتوجيه.

إذا ما سئلت أي الدوافع هو المسيطر عليك في حياتك، أو بمعنى آخر أقوى ما يؤثر عليك أو ما يظهر منك من وقت لأخر لأجبت: بأنه الرغبة في اللهو وقضاء وقت طيب. وطبيعي أن وسائل اللهو كثيرة، كألعاب المنافسة ولعب الورق والسباحة والمطالعة والمزاح والسينما إلى آخره، أما إذا سئلت ما هو اللهو بالنسبة إليك لقلت: "أن تعمل كل ما يحلو لك".

ومجمل القول إن فكرتك عن اللهو كما خبرتها عن كثب سنين متواصلة، هي أن تفعل ما تريد وقتما تريد، وبمعنى آخر أن اللهو بالنسبة إليك هو مجرد حافز، وإقبال وإحجام رهن اللحظة، هو لهو بغير خطة على الإطلاق. واللهو وقضاء وقت طيب، جانبان مهمان من جوانب تكوين الشخصية، إنما في حالة ما إذا كان دليلهما إلى ذلك بضعة اعتبارات مهمة معينة فإن اللهو القائم على الحافز، أو ذلك اللهو الذي أساسه عمل ما يروقك وقتما يحلو لك، إنما هو لهو مخرب هدَّام لتكوين الشخصية الناجحة، وعلاوة على ذلك فإنه يقضي على أوجه النشاط، التي يمكن للمرء أن يتمتع بها، الواحد تلو الآخر حتى يأتي الوقت الذي يجد المرء فيه أنه كلما طعن في السن، ضأُل نصيبه من اللهو.

خذ التنس مثلاً، فحتى وقت قريب جداً لم تكن تعد التنس لهواً إلا إذا وجدت في نفسك الرغبة لممارسته، أو كلما وجدت في إمكانك اللعب دون مشقة، أو كلما رأيت الفرصة سانحة لتلعب مع من لا يجيد اللعب، أو من لا يجد غضاضة في أن تهزمه حتى ولو كان أمهر منك. وكلما اتقنت اللعب كلما كثر عدد الأفراد الذين تتمتع باللعب معهم، ويتمتعون باللعب معك. ثم يأتي الوقت الذي يصبح فيه التنس بالنسبة إليك – وبمر السنين – مصدر متعة لا حد لها، ومصدر صداقة وطيدة بالفتيان والفتيات. أما أن كنت ترغب في تحسين لعبك حتى تستطيع الحصول على قسط أكبر من اللهو، فمن الأهمية بمكان أن تلعبه في مناسبات متعددة، خصوصاً عندما لا تحس الرغبة في لعبه. بل يجب عليك أن تهتم كثيراً بهذا اللعب، فتتكلم عنه، وترسم له الخطط، وتلعبه مع أولئك الذين تحب اللعب معهم، أو الذين لا يحبون اللعب معك. ومجمل القول إنك يجب أن تتحمل الكثير، حتى تصل إلى مرادك ولا يعني ذلك أنك لا تعتبر التنس لهوا إلا اذ كنت بطلاً من أبطاله. ولكن يكفي أن تحصل على مهارة نسبية بمرور الزمن، حتى يرحب الناس بك كخصم في اللعب، وحتى يزداد عدد من يرحبون بك.

وأن الراديو والسينما لمن الهوايات المحببة الرئيسية، وكلاهما يستحق التقدير. ولكن ألا تعلم أنك كلما أمضيت وقتك في الاستماع إلى الراديو أو مشاهدة السينما، قل الوقت الذي يمكنك فيه المران على الأشياء التي كان الواجب أن تكون قد تعلمتها الآن، فإن مجرد مراقبة غيرك من الناس يعمل، لا يجعل منك عاملاً بالمثل. فإذا حرمت على

نفسك هذه الهوايات السلبية، ووطدت نفسك على المران المنتظم على التنس أو أحد الفنون أو الهوكي أو الموسيقى، وكل تلك الأشياء التي تحاول الآن تعلمها تعليماً سطحياً، لكان مجال اللهو عندك في السنة القادمة أوسع، ثم يزداد اتساعاً بمر السنين. وأن تجاربك نفسها لتحوي الكثير من الأمثلة على صدق هذا الكلام، فقد كنت تجد متعة كبيرة في آلاتك الموسيقية، ولكن متعتك كانت في العزف عليها بالطريقة التي تحلو لك بدلاً من المران المتواصل. وتلك هي الصعوبة والجهد اللذان يصادفهما كل من يريد التمكن من الموسيقى. والنتيجة الحتمية لذلك أن المتعة التي تجدها في مثل هذا النوع من اللهو ستتناقص بمرور الوقت، وكذلك كلما صادفك أحد أولئك الذين ضحوا بمتعتهم في سبيل المران الشاق، مع أن موهبتهم في هذا المضمار بالذات قد تكون متواضعة بالنسبة الى موهبتك. وهذا بالضبط هو ما سيحدث لموهبتك ولقدرتك على التمتع بالفنون، اللهم إلا إذا بدأت تنظر إلى هذا الموضوع نظرة جدية. وبمعنى آخر أنك إذا أصررت على ألا تمارس التمرين وتمسك بالفرشاة إلا كلما أحسست في نفسك الرغبة، أو كلما وجدت في ذلك لهواً، فلا تتوقع أي تقدم أو تحسن، ولا تنتظر ان تحتفظ بنفس هذه المتعة طويلاً.

وأراك الآن تبذل جهداً جباراً لتخطي الامتحان، وأجدك فعلاً تسيطر وتتحكم في كثير من دوافع هواك بطريقة جدية، ابتغاء الوصول إلى هدفك، فتذكر أنك الآن إنما تدفع ثمن ذلك اللهو الذي تمتعت به،

أو تظن أنك كنت تتمتع به خلال تلك المناسبات العديدة، التي كان الأجدر أن تقضيها في المذاكرة.

وحتى الآن، أرى لديك الكثير من الوقت تبذله في اللهو ومجرد التسكع بلا عمل. وأن فكرتك عن اللهو التي أخبرتني بها اليوم، وهي تنفيذ كل ما تشعر برغبة فيه، لن توصلك إلى شيء، ولسوف تهدم لهوك ومتعتك في العام القادم وفي الأعوام التالية.

ولكم شكوت لي عدم رضائي عن رغبتك في اللهو. أنت مخطئ يا بُني، فأنا لا أعارض في أن تمضي وقتاً طيباً، ولكني أعتقد في الحقيقة أنك لا تحصل من هذه الحياة الآن على القدر الكافي من اللهو. وما كان السبب الذي يدعوني إلى الإصرار على أن تؤدي عملاً ما، هو أن أصرفك عن لهوك، بل لأمنعك أن تضيع وقتك منغمساً في ذاتك، ذلك الانغماس تظنه لهواً، ولا حول بينك وبين التردي كلية في عادة إتيان ما تريده فحسب. فلو أنك بذلت جهدك، ووجهت عقلك نحو التفوق في دراساتك، أو أي فن من الفنون، أو بعض ألعاب المنافسة، أو في صلاتك الاجتماعية، أو في المباريات العامة، لما وجدت مني ذلك الإصرار على إرغامك بالقيام بتلك الواجبات المنزلية التي أكلفك بها.

وإني موقن أنك من الذكاء بحيث تدرك ما في هذا الكلام من منطق سليم، ولتعلم أن ذلك الذي كنت تدعوه لهواً إنما هو رذيلة الانغماس في الذات والانسياق وراءها، ولقد رأيت منك مظاهر كثيره

تدل على امتلاكك قوة التحكم في دوافعك، والقدرة على أن تعيد تكوين عاداتك من جديد. وأن ميلك الأخير إلى الإكثار من لعب التنس لهو خير دليل. فأرجو أن تكون خطوتك التالية – وأظن أنها ستكون أهم خطوة تخطوها في حياتك كلها – هي أن تغير فكرتك عن اللهو، من أنه أفعال تحركها النوازع، إلى لهو قائم على خطة مرسومة.

ومن غريب المصادفات، أن مقدار اللهو الذي تتمتع به لا يقاس بمدى المهارة التي تكتسبها بعد طول المران فحسب بل بمقدار المتعة والرضاء الذي تسبغه على الغير. فبقدر ما تبذل خلال مبارياتك وصلاتك الاجتماعية، مهما كان نوعها، لكي تهيئ للغير فرصة التمتع بوقت طيب، وتشعره بالسعادة والسرور، يزداد عدد أصدقائك، وتتكاثر الدعوات الموجهة إليك، وتتعدد فرص المتعة واللهو أمامك. فيمكنك مثلاً أن تضفي على كل شوط من أشواط التنس بالنسبة لخصمك نكهة لذيذة، وذلك بأن تتحكم في نوبات غضبك، وبأن تكف عن انتقاده، وبأن تمتدح كل لعبة ماهرة يأتيها خصمك. وبالمثل يمكنك تطبيق هذا المثال على كل حالة أخرى تصادفك، مهما كان نوعها."

قليل هم الذين سيترددون في الحكم بمدى الفائدة العميمة والنصيحة الثمينة التي تضمنها هذا الحديث. غير أن هذا الحديث بالذات، إن هو في الحقيقة إلا مأساة دامية؛ لأنه محاولة إتيان ما كان يجب تحقيقه منذ ثماني سنوات على الأقل، عن طريق التربية الدينية،

وفرض النظام غير المسبب، أتى هذا الوالد فصاغه عن طريق المنطق والفكر.

إن الوقت الأمثل لتعليم الطفل كيف يخضع دوافعه لقيم عليا، هو السن الذي يستطيع فيه أن يتقبل ما يقال له دون أن يفهمه.

فإذا استقر رأي الآباء على عدم إرسال أولادهم إلى الدروس الدينية، حتى يبلغوا السن التي يفهمون عندها ما يستمعون إليه فهم في الحقيقة يتبعون مبدأ هدَّامًا إذا فرض أن طبقه الجميع، لأن الوقت يكون قد فات لإصلاح ما فسد إذا بلغ الطفل السن التي يفهم بها كل ما حوله، ولا غرو فقد ضاعت السنين النافعة القيمة هباء.

الحب والزواج

"وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ"

البقرة ٢٢٨

لقد اتضح لي بعد مضي أكثر من عشرين عاماً في دراسة السلوك البشري، أن نصائح الكاتبة المعروفة دوروثى ديكس التي أزجتها إلى الناس فيما يتعلق بالسعادة الزوجية، لأعلى قدرًا وأعمق أثراً من كل ما ورد بالمؤلفات والأبحاث التي قام بها العلماء والمختصون في هذا العلم، فبينما هم يوقفون كل أبحاثهم على كلا الناحيتين الجنسية والعاطفية، كانت الآنسة دوروثى تتناول ناحية التعاون المتبادل بين الزوجين. وبينما هم يغرقون في وصف المرأة ذات البرود الجنسي كانت هي تمعن في وصف ربة الدار المستهترة، وإذا هم بالغوا في الحديث عن الرجل المفرط في الغريزة الجنسية كانت هي تتعقب الزوج الخمول الكسول، وإذا ما انهمكوا هم في ازاحة الستار عن معنى الأحلام والرغبات والطاقة الجنسية المكبوتة، أفرغت هي جهدها لنصح الزوجات أن يكن خير مدبرات لمنازلهن، والأزواج ليمنحوا نساءهن مصروفات عادلة معقولة، وناشدتهما سوياً أن يتصرفا تصرف العقلاء الحازمين.

ولابد لي من الاعتراف بأني كنت متأثراً إلى حد بعيد خلال السنوات الأولى من اتصالي بالناس، بحكم مهنتي، بذلك الرأي القائل

بتأثير الناحية الجنسية على هناء الزوجية، وبمرور الزمن أدركت أن الانحراف الجنسي إن هو إلا أحد الأسباب العديدة التي تؤدي إلى التعاسة الزوجية، ولو أنه أقلها حدوثاً، ويبدو لي أن مداومة الإشارة إلى هذا السبب كعامل هدام، راجع في كثير من الأحوال إلى ذلك بالتأكيد الزائف على أهمية الغريزة الجنسية، هذا التأكيد الذي شجع على المضي فيه تلك النظريات شبه العلمية التي تنادي بها مدرسة فرويد. ومن البديهي أن هذا الاهتمام، وذلك التأكيد لا يؤديان إلى كشف النقاب عن حالات الانحراف الجنسي الحقيقية فحسب، بل هو نفسه يخلق مثل هذه الانحرافات في عقول الأفراد الذين يتلمسون سبباً يبررون به شقاءهم في حياتهم الزوجية.

وقد دلت دراساتي وأبحاثي فيما بعد على أن التحكم في عواطف المودة والألفة الناجمة عن الغريزة الجنسية غالباً ما يكون أكثر سهولة من التحكم في أنواع سلوك البشري المتعددة التي قد تقيم صرح السعادة الزوجية ومهامها. مثل ذلك الرجل الذي يشتهي امرأة مليحة ثم يستطيع أن يكبح جماع غريزته وعواطفه نحوها، قد يكون نفس هذا الرجل عبداً لإحدى العادات السيئة التي تشين سلوكه في المجتمع الإنساني، وبالتالي تقوض صرح سعادته الزوجية، ورغم ذلك فإنه لا يستطيع التحكم أو السيطرة على عواطفه وميوله نحو هذه العادة. أعني فيما سبق أنه من الخير الإغراق في الحديث عن الأخلاق الطيبة والشخصية الكريمة غير الأنانية، والعادات الفاضلة التي تكون دائماً من مستلزمات الشخصية الجيدة عن الخوض في تفاصيل الغرائز الجنسية. بل إن القيم

الخلقية والعادات الطيبة، لتتطلب مرانا طويلاً ومعرفة عميقة قبل إمكان التحكم فيها، ولقد أيدت تجارب الباحثين بالفعل هذه النظرية السابقة، وأعني بالباحثين أولئك الذين لا يستندون على مبدأ أهمية الغريزة الجنسية.

ولقد أدلى الدكتور برنارد ساش أحد الباحثين الثقاة في هذا الميدان والعميد السابق لأكاديمية نيويورك الطبية وأبرز أخصائيي الأمراض العصبية في أمريكا بتصريح قال فيه "من الغريب أن يستمر ذلك الاهتمام العظيم بالمشكلة الجنسية في أمور الزواج حتى اليوم، بينما تهمل عوامل أخرى أشد منها أهمية. ولقد سمعنا الكثير عن التطرف الجنسي في هذا العصر، والواقع أن كثرة المناقشة في هذا الموضوع إن هي إلا التطرف بعينه، وبدلاً من أن تبذل الهيئات المختلفة جهودها ووقتها في استنباط أفضل الوسائل لتنمية الأمانة والصدق واحترام السلطات والوطنية، وحب الغير في نفوس الأطفال والناشئة نراها تضيع ذلك الوقت سدى لتثقف الناس ثقافة جنسية"

إذن فمثل هذا التعلق بالغريزة الجنسية، وكل ما أسفرت عنه من مبادئ كزواج التجربة، والسعي وراء الزوجة أو الزوج المُماثل في الطباع والعادات، وحق الإشباع الجنسي في الزواج[٢٤] كل هذا قد حول الانتباه عن المغزى الأساسي الكامن وراء فكرة الزواج. فالزواج إن هو إلا خطوة

---

(٢٤) اعتقاد الزوج أو الزوجة أن عقد الزواج يخول لأحدهما أو لكليهما الحق في الإغراق في إشباع غريزته الجنسية.

يخطوها فردان غير كاملين ليوحدا جهودهما، أثناء النضال في سبيل السعادة والكمال، به يقيما صرح وحدتهما الاجتماعية الصغيرة المتواضعة ليتمكنا من مسايرة المجتمع والمضي في موكب الحياة؛ فالزواج إذن درجة من درجات النمو الإنساني السيكولوجية والبيولوجية، وهو بالكاد فرصة لنيل السعادة، إما أن ينجح المرء في انتهازها واقتطافها، وإما أن يبوء بالفشل، وما كان الزواج كما يعتقد الكثيرون منحة تجلب الهناء على طول الخط، وعليه فلا يصح أن نطالب بضرورة التوفيق في الزواج إلا كما نطالب بتحقيق أي هدف آخر من أهداف الحياة. أعني أنه يجب علينا السعي والكد في سبيل الحصول على هذه السعادة. فلقد فرضت الشريعة الزواج وأحلته ليكون وسيلة إلى حياة أهنأ وأغنى، لا ليكون تجربة يكشف فيها المرء ما إذا كان شريكه ملائماً له من عدمه.

ولكي أوضح الفارق العظيم بين الفكرتين أسوق قصتين من كثير سردهما على أحد زملائي في المهنة ممن تربطهم بعلم النفس أوثق الصلات، والذي كان يجد نفسه مضطراً إزاء الظروف المحيطة بالمترددين عليه لاستشارته إلى نصحهم بعدم الزواج. أولها قصة شابة صغيرة ظل يلاحقها أحد الشبان ثماني سنوات بلا انقطاع عله يظفر بها كزوجة، ولم يكن بالشاب ما يعيبه على الإطلاق وقد فكرت الفتاة طويلاً قبل أن تسمح له بمواصلة السعي وراءها، بل قد حددت له مراراً موعداً لعقد زواجهما، وفي كل مرة كانت تتعمد التخلص من الموقف والإفلات من الوعد، إما بالتزامها الفراش أو بادعاء مرض أحد أفراد العائلة أو

بانتحال عذر يبرر وجودها في غير مكان العقد، وأخيراً، خشي الشاب أن تكون خطيبته قد أصيبت بالاضطرابات العصبية، فصمم على عرضها على طبيب نفساني، ولما ذهب بها إلى زميلي السابق الذكر، سألته أن يصدقها النصح فيما إذا كان الافضل لها أن تتزوج، وبعد مناقشات طويلة، تبين له أنها شديدة التعلق بأبيها وملازمتها إياه هو منبت إقلاعها عن الزواج، ومبعث ترددها، فنصحها بعدم الزواج من هذا الشاب أو من غيره، لأنها ستظل دائماً تقاسي ذلك الاعتقاد الكامن في اللا شعور بأنها قد تزوجت أباها مهما كان الرجل الذي تزوجته.

وتكاد القصة الثانية تكون عكس الحالة السابقة، وهي قصة رجل أتى صديقي يوماً وسأله لاهثاً عما إذا كان يجدر به أن يتم عقد زواجه الذي حدد الأسبوع التالي موعداً له، ولا سيما وقد وزعت بطاقات الدعوة وتم تجهيز ترتيبات الحفلة. ثم استطرد قائلاً إنه لا يحب أن يخيب ظن الفتاة وأسرتها، ولكنه يخشى ألا يوفق في هذه الزيجة، ولذا فهو مترددين الإقدام والإحجام، فجاء يطلب النصيحة، وأظن أن كلمة واحدة مثبطة من هذا الطبيب كانت كفيلة بتشجيع الفتى على المضي في إحجامه وتردده، ولكنه آثر التمهل وسأله ما إذا كان عرض نفسه للفحص الطبي ليتأكد من لياقته للزواج، فأجاب الفتى أنه قد فعل واطمأن على سلامته؛ فاستطرد الطبيب يناقشه عن الفتاة التي كان مزمعاً العقد عليها وعن أسرتها، وكل الظروف المحيطة بالزواج.

ومن ثم اتضح له أن الأمور كلها تسير على ما يرام، وأنه ليس هناك ما يمنع هذا الزواج من أن يتم، ولما لم يكن هذا الفتى بالشخص الجذاب أو الأخَّاذ فقد بدأ للطبيب أنه لو نجح هذا الرجل في الحصول على هذه الزوجة لكان كسبه ضخماً.. ولا غرو فقد كان متقاعساً منطوياً وطفلاً مدللاً يخاف الحياة ويخشاها، وخلاصة القول: لم يكن هذا الرجل بالذات بالمثل الذي تنشده أية زوجة عادية.

فتراءى لزميلي أن الزواج وما يتبعه من مسئوليات والتزامات قد يكون سبباً في خلقه خلقاً جديداً، لذا حثه بكل ما في وسعه على أن يقدم من فوره على الزواج بعد أن أقنعه بأنها فرصة ملائكية قد هبطت عليه من السماء ليتلقفها فيبدأ بها حياة جديدة كلها سعادة وهناء.

وإنه لا بد لي أن أتساءل هنا أي حق يخول لي أن أفرض نظرياتي على مثل هذا الرجل أو غيره فأحكم عليه بالسعادة أو بالشقاء، وما شأني حتى أتدخل بين زوجين عقدا عزمهما على مجابهة الحياة سويا؟ وأي حق يسوغ لي أن أثبط عزم هذا الرجل عن المضي في إحدى التجارب الانبساطية الكبرى في الحياة، ولا سيما وهو نفسه يقدم رجلاً ويؤخر أخرى؟ ومع أن شخصية ذلك الفتى الأخير كانت بلا شك دون المتوسط، والفرصة التي أمامه للنهل من السعادة ضعيفة، فإني مع ذلك أتساءل عن أي سلطة تخول لي أو لغيري أن أحرمه حتى من هذه السعادة، أو أن أنصح عروسه أن تنتظر حتى تلقى من هو أفضل منه؟

في مثل هذه الحالات التي يخلق فيها ماضي الشخص في ذهنه، اليأس من السعادة الزوجية، وعدم الاطمئنان إلى المستقبل، والعقبات في طريق الزواج، وكان الشخص لائقاً من الناحيتين الطبية والجسمانية، كنت لا أتشبث بالكمال كشرط للنصح بالزواج، بل كنت أشير على المترددين على بالزواج، ثم النضال والصراع في معركة الحياة، لعلهم يتحسنون. كما كنت أفضل السعي والكد لتحقيق السعادة الزوجية على ما فيها من مغامرة ومجازفة، عن النصح بالزواج إلا عند ضمان النجاح المؤكد فيه، فالزواج خطوة مهمة من خطوات تكوين الشخصية غير الأنانية أو المنبسطة، بل أذهب أبعد من ذلك فأقرر أن المحاولة ثم الفشل خير من الإحجام كلية.

ولقد لاحظت بهذه المناسبة، أنه قد حدث هناك تغير ملحوظ خلال السنوات الأخيرة بين فتيات الجامعات في نظرتهن نحو الزواج كمستقبل لهن. فلما بلغت الحركة النسائية أشدها منذ بضع سنين كانت نسبة كبيرة من نساء الجامعات ينشدن الوظيفة أو العمل كأسمى هدف يربطن به مستقبلهن، وفي أثناء السنوات الثلاث الأخيرة وجهت عدداً من الاسئلة نحو أولئك الفتيات، إلى جانب دراسة مستفيضة على طلبة الجامعات في البلاد كلها، وتلخصت أسئلتي فيما يلي:

١- ما هو أهم شيء يمكن أن تربطي به مستقبلك في الحياة؟

٢– وهل تعتبرين الزواج ومساعدة الزوج على شق طريقه في الحياة أكثر أهمية، أم أقل، أم على قدم المساواة، مع مستقبل مستقل بك؟

وقد دل الاستفتاء على أن خمسة وتسعين في المائة من فتيات الجامعات يعتبرن مستقبلهن كزوجات وأمهات هو الهدف الأول، وأن مساعدة الزوج على شق طريقه في الحياة أهم من المضي في الحياة مستقلات.

إذن فهذا الاعتقاد الذي أخذ ينمو ويطرد بين فتيات الجامعات لهو الرجوع مرة أخرى إلى الأسس القديمة، ومع ذلك فمما يؤسف له أنه بينما وصلت نسبة من يوفقن في زواجهن من خريجات الجامعات أقل من ٩٠% بقليل، إلا أن نسبة المتزوجات أقل من ذلك بكثير.

فالسعي إلى السعادة الزوجية بل إلى اختيار الزوجة أو الزوج المناسب يبدأ مبكراً منذ الطفولة، وكل تلك العناصر التي تدخل ضمن تكوين الشخصية الجيدة، بما في ذلك اتزانها العاطفي ومدى نشاطها الاجتماعي وشجاعتها في مقابلة الحياة، وكل عاداتها المنبسطة لها أكبر الأثر في الاهتداء إلى الشريك الآخر، بل في نجاح الزيجة.

فالفتاة التي تمارس لعبة التنس مثلاً تعثر على الزوج المنشود بسهولة أكثر ممن لا تمارسنها، وذلك الفتى الذي يشترك في تمثيل المسرحيات المدرسية يهتدي إلى شريكة حياته بسهولة عن غيره ممن يفضلون الإصغاء إلى الراديو أو قراءة القصص الغرامية الخيالية والأطفال

الذين يلعبون على الآلات الموسيقية ويشتركون في فرق المدرسة الموسيقية أولهم القدرة على تسلية أصدقائهم تكون الفرص السانحة لهم لاختيار أصحابهم أكثر من تلك التي تسنح لأولئك الذين يستمعون إليهم فحسب، والأطفال الذين تعلموا الرقص والبريدج والبنج بنج، غالباً ما يهتدون إلى الزواج أو الزوجة المناسبة، سواء رغبوا أو لم يرغبوا، بسهولة أكثر من الأطفال الذين تبدو عليهم الرزانة ويعتبرون هذه الألعاب تافهة سقيمة، وأولئك الذين يبذلون نشاطهم في جمعيات الكشف أو ينضمون إلى جماعات الرحلات أو ينضوون تحت لواء الجماعات حتى ولو كانوا لا يستسيغون كل من معهم، أكثر عرضة للزواج من أولئك القابعين في عقر دارهم. فكثيراً ما أشرت على المئات من المترددين علي بأن الطريقة المثلى للعثور على أصدقاء فضلاء، هي الاندماج مع أولئك الذين لم نكن نبالي بهم أو نكترث لهم.

وبديهي أن التنس أو المثيل وغير ذلك من أوجه النشاط ليست بالشرط الأساسي اللازم للعثور على الرفيقة المناسبة، إنما تنحصر المشكلة كلها في تنمية عدد كاف من المهارات والعادات التي تكون في مجموعها شخصية غير أنانية، شخصية تبذل طاقتها بسهولة طبيعية في أوجه النشاط الاجتماعي التي تجلب السعادة أو التسلية لغيرها من الناس. إذن فالأساس في الزواج هم كما قلت سابقاً الانبساط، أعني تضحية المرء لملاذه ومتعة، من وقت لآخر، لمنح هذه المتعة للغير.

ولشد ما سررت عندما علمت أن المدرسة التي ألحقت بها ابنتي قد اتخذت خطوات فعالة لتعليم الأطفال الروح الرياضية، إذ كانت هذه المدرسة تهتم كثيراً بالألعاب ونشاط الجماعات، وتعتبرها وسيلة لتلقين الأطفال تفاصيل الروح الرياضية، فكثيراً ما يعلمونهم ألعاب المنافسة التي تضم الجنسين، أو تقتصر على البنات وحدهن أو البنين وحدهم. ولم تكتف شهادة ابنتي على بيان نوع سلوكها، أعني مدى هدوئها وطاعتها في حجرة الدراسة فحسب، بل على مدى تقدمها الخلقي في ألعاب المنافسة أيضاً.

فذلك النفر من الشبان والشابات الذي تعلم ممارسة رياضات عصره الخطرة وغير الخطرة، قد تعلم كيف يبذل ويأخذ خلال حرارة المنافسة، وهو أقل عرضة للخطأ في اختيار صديقه أو صديقته، مع أن سعادته لدى الزواج أكثر احتمالاً من غيره، ولا غرو فهذا النوع يكسب من المعارف والصحاب عدداً وفيراً يضم مجموعة مختلفة من المستويات الخلقية المعقولة يمكنه من الاختيار بينها كما يشاء. فمن يجاري الحياة يتضح لهذا النوع من الناس أنه وإن كان الشعر المجعد والجمال الفاتن والقوام الممشوق والتقاطيع المثلى البديعة من الشروط المرغوبة المطلوبة، إلا أن أهميتها لا تقاس بالنسبة لتلك المشاعر التي يستخدم بها الفرد هذه القيم. ولما كان هذا النوع من الناس عادة من المجموعة المنبسطة ذات العواطف والانفعالات المتزنة، فنادراً ما تجدهم يخطئون

التميز بين الحب المادي[٢٥] والحب الراسخ المتين. فذلك الشخص المنطوي الذي تدور كل حياته حول نفسه، وحيث مدى معارفه ضيق محصور، تجده يقدس الحب المادي أكثر من المنبسط الواقعي، ولعل إحدى الخصائص التي غالباً ما يتميز بها المنطوي هي إصراره المستديم على اعتبار كل مشاعره وعواطفه مثلاً عليا ذات مبادئ سليمة. وحتى المنبسط قد يكون الحب لديه مادياً أعمى كذلك، فالواقع أن كل مشاعرنا عمياء إلا بقدر ما نضئ لها الطريق بتجاربنا، وبقدر ما نرشدها بتلك المثل العليا التي تختلف عنها.

والعواطف المثلى هي تلك التي تقررها مجموعة من المثل العليا، التي هي في الواقع أسمى من العاطفة ذاتها، أعني أن العاطفة ليست مثالية في ذاتها، ولكن المحبوب هو المثالي بالنسبة للحب. فالزوج في حبه لزوجته يكون حبه موضوعياً، ولكن الزوجة هي المثل الأعلى الذي يشبع هذه العاطفة.

فالدين لا يزودنا بالمثل العليا للحياة فقط، بل نرى الفقهاء قد بينوا بوضوح العلاقة القائمة بين هذه المثل والزواج، خلال طقوس الزواج، التي تعتبر الزواج ليس مجرد عاطفة شخصية فحسب، بل هو عقد مهم، مسجل أمام محكمة، أعلى وأسمى وأكثر فهماً للحياة من المحاكم الدنيوية. ولا يعدد هذا العقد مباهج الزواج ومزاياه بل يفرض التزاماته وقيوده فرضاً.

---

(٢٥) الحب المادي هم القائم على أساس جمال الجسد المادي

وكما أن صفات الشخصية غير الأنانية لها أعظم الأهمية عند بدء الزواج، فهكذا يجب أن يكون الحال في خاتمته السعيدة، ولست أعني أن كلا من الزوجة والزوج يجب أن يلعبا التنس أو السباحة أو يهويان الموسيقى أو الشعر، أو أن يتفقا في ميول معينة، كالدين مثلاً، أو المبادئ العامة لأسلوب معيشتهما وطريقة تربيتهما لأطفالهما، وعلى الأقل بعض الرياضات أو أوجه النشاط التي تمكنهما من إدخال السرور على قلوب أصدقائهما، أو تكون موضوع تسليتهما بواسطة أولئك الأصدقاء.

والميول التي يمكن أن يتفق فيها زوجان سعيدان وفيرة كثيرة لا يمكن حصرها، ولم أعرف حتى الآن بين مكتشفات علم النفس ما يجيز لأخصائييه أن يصفوا لأي الزوجين الميول أو الخصائص المشتركة التي قد تؤدي إلى سعادتهما الزوجية. وقد قال الدكتور آرثر فرانك باين في مقال حديث له "أن معظم مآسي السيوتات قد تسببت عن زواج امرأة سمراء بشاب بفضل الشقراوات، وأن أحد المكتشفات القليلة لعلم النفس الحديث التي تمخض عنها البحث، بعد أن خضعت للتجارب المتكررة هي أن لكل فرد في الحياة نموذجه الزوجي الخاص" ومن حسن حظ الإنسانية أن علماء النفس لم يكتشفوا بعد هذه "النماذج" وأرى بدوري أنهم لن يتمكنوا من اكتشاف هذه النماذج المضبوطة التي بها يمكنهم ضمان السعادة الزوجية لأحد من الناس. أما الذي توصلوا اليه فعلاً فهي خصائص الأفراد التي تساعد على بناء السعادة الزوجية. فالرجل المنبسط أو غير الأناني يمكنه أن يجعل كلا من الشقراء

والسمراء أكثر سعادة من الرجل الأناني، أما المنطوي فيمكنه أن يجعل حياة أجمل الزوجات أو أكثرهن تدبيراً شاقة تعسة. ومع ذلك فقد يتزوج رجل ممن يدور تفكيرهم حول أنفسهم بسيدة غير أنانية أو بالعكس ثم يكون كل منهما سعيداً. وبالمثل قد يكون الزوج أو الزوجة منطويين، ولكنهما يهجران أنانيتهما تحت تأثير مسئوليات الزواج، وتربية الأطفال، والكفاح لوضع أسرتهما في مرتبتها من المجتمع، وكذلك ليبلغا قمة السعادة والهناء. فالزواج من الناحية السيكولوجية أن هو إلا ارتباط بين فردين غير كاملين يوحدان فيه جهودهما للكفاح سوياً لبلوغ الكمال. والعبرة فيه تكون بمدى التقدم والتحسن الذي يحرزانه، وليس بالحالة التي كانا عليها وقت الزواج.

وقد أعلن بعض رجال علم النفس، أخيراً نتائج دراساتهم الواسعة النطاق للعوامل المؤثرة على نجاح الزوجية بعد أن أجروا اختبارات قياس الشخصية، ومعرفة الميول على ١١٦ زوجاً من المطلقين والمطلقات و٣٤٦ زوجاً من المتزوجين. ولعل أغرب النتائج التي وصلوا إليها في هذا المضمار، هي أن أولئك المطلقين والمطلقات، والذين فشلوا في حياتهم الزوجية كانوا أقل اتزاناً من الناحية العاطفية وأشد انطواءً وأقل اعتماداً على أنفسهم من السعداء في حياتهم الزوجية. وكانت نسبة المطلقات، خصوصاً بالنسبة لغيرهن من الجماعات التي أجريت عليها الاختبارات، كبيرة جداً فهن لا يمنحن الخدمة الاجتماعية أو الميول والمبادئ الراقية قسطاً من نشاطهن." وقد دلت الاختبارات على أنهن لا يملن كثيراً إلى الرحلات والمؤتمرات والسياحات وجمع التبرعات

الخيرية، وغير ذلك من أوجه النشاط الدال على حب الناس والميل إليهم. وإذا قارنا أولئك الأزواج والزوجات السعيدات بالمطلقين والمطلقات والفاشلين في زيجاتهم نرى الأولين أكثر انبساطاً واتزاناً من الوجهة العاطفية، أو أشد جسارة وأكثر اعتماداً على أنفسهم من الوجهة الاجتماعية، وأنهم يميلون إلى أوجه النشاط الراقي وإلى أداء أعمالهم بالاشتراك مع غيرهم. وبالاختصار فإن كل الصفات والعادات اللازمة للشخصية المثلى كانت هي الصفات التامة الوضوح بين السعداء في حياتهم الزوجية وأقل ظهوراً بين أولئك الفاشلين في زيجاتهم أو المطلقين والمطلقات.

ولتلخيص هذه النتائج أقول أن السعداء في حياتهم الزوجية كانوا الأشد إنكاراً لذاتهم بينما أولئك التعساء في حياتهم الزوجية والمطلقون كانوا أكثر أنانية.

فبالنظر إلى هذه النتائج، وبالنسبة إلى أوجه النشاط المعينة التي اتبعتها كل جماعة من الجماعات، نرى أن تطبيق القيم الدينية الأساسية التي تحض كلها على الإيثار وحب الإنسان لأخيه واجب لا مناص منه إن كنا ننشد السعادة الزوجية هدفاً.

ولعل إحدى النتائج المسلية في هذا البحث هي "أن المطلقين والمطلقات يميلون أكثر من المتزوجين إلى الموضوعات الفكرية" ويدخل ضمن هذه الموضوعات الفكرية، الفلسفة وعلم النفس والشطرنج،

ويميلون أكثر من الجماعات الأخرى إلى الآراء السياسية، ولا يميلون لأعمال الجمعيات الرياضية والدراسات والهيئات الدينية.

وأخيراً، نخرج من هذا البحث بأن كل هذه الدراسات الحديثة تؤيد مكتشفات علم النفس التي تقول بالضرر البالغ الذي ينجم هموماً عن الاهتمام الشديد بالمظاهر الفكرية للحياة، دون الأخذ بفضائل المعيشة الواضحة؛ ففي الزواج كما هو الحال في كل شيء غيره قد تصبح الناس عبيداً للسببية أعني الأسباب والمسببات.

التدبير الاجتماعي

"وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ"

(الأعراف ٥٨)

عرضت عليَّ ذات مرة مشكلة من أعقد المشاكل التي صادفتني، أبطالها سيدة شابة وأمها، كانا في شجار متواصل مع بقية أفراد الأسرة، بخصوص امتلاك منزلهم وبعض الشئون المالية الأخرى. وبمرور الوقت اشتد هذا الخلاف حدة، حتى أصبح انهيار الصرح العائلي أمراً لا مفر منه. فقد عزمت السيدة وأمها على هجر الزوج وأولادهما الثلاثة، ورفع الدعوى القانونية لحيازة البيت، ولما بدأت أستفسر عن ماضي أفراد هذه الأسرة العجيبة اتضح لي أن السيدة الشابة كانت إحدى المناديات المتحمسات للسلم العالمي وأن نشاطها الاجتماعي الأساسي كان مركزاً في جمعية لمنع الحروب، وكثيراً ما انخرطت في مناظرات تدعو إلى مناهضة الحروب.

لذا وجدت نفسي مسوقاً إلى أن أوجه لها ذلك السؤال "كيف تتوقعين أن تمنعي الحروب بين الشعوب إذا كنت قد عجزت عن منعها بين أفراد أسرتك؟"

وبطبيعة الحال لم يكن لسؤالي هذا أي تأثير، ومن ثم انسحبت من هذه القضية لأن الضغينة والعادات الخبيثة، التي اتصف بها كل من له ضلع بها، كانت عميقة بعيدة الغور لدرجة وجدت نفسي عندها عاجزاً عن عمل أي شيء.

فلا يستطيع الطبيب النفسي أن يلمس تأصل بذور الشقاق والفقر وعدم القناعة، إلا فيمن يتصف بالشعور بالنقص والأثرة والاضطراب العاطفي. فيُرى الابن في حرب مستعرة مع أبيه، ذلك الأب الذي أدى كرمه الخاطئ وسخاؤه المفرط إلى حرمان هذا الابن من ميزة الاستقلال والاعتماد على النفس، والفتاة التي تشك في كل صويحباتها وزميلاتها لأنها عجزت عن إنماء تلك العادات الاجتماعية التي بها تكتسب صداقتهن والفتى المفرط في نقده للأنظمة الاجتماعية، لأن أنانيته بلغت حداً جعله غير قادر على بذل التضحية اللازمة، الكفيلة بجعله يستمتع بمثل هذه المنظمات، والشخص الذي صار في صراع عقلي وعاطفي دائم، لأنه عجز عن إخضاع قيمة الشخصية للقيم السامية التي تبدو له بعيدة كل البعد عن المنطق والعقل. كل هؤلاء وأولئك يستطيع علم النفس أن يبحث عقدهم ويحللها مبيناً أسبابها ومسبباتها.

ولعل أحد الأعراض الشائعة لعقدة الشعور بالدونية أو الفشل الشخصي، هو الرغبة في تغيير النظام الاجتماعي إما في البيئة المحيطة بالفرد، وإما في العالم أجمع؛ فأولئك الشبان الذين يقاسون من فشلهم الشخصي في محيط الحياة تجدهم تواقين إلى تغيير عائلاتهم لا

أنفسهم. والطالب الفاشل في دراسته لا يفكر في إصلاح نفسه بل يود لو يغير أساتذته أو نظام التصحيح. وكذلك الموظف الذي يعجز عن الحصول على المرتب الذي كان يحلم به يود التخلص من رئيسه مما بنفسه من ضعف، حتى ذلك الذي لا يجد عملاً يرتزق منه يود لو يغير النظام كله.

وقد اتضح لي من تجاربي العديدة، أن أولئك الأفراد العاجزين عن الوصول إلى الصدارة الاجتماعية في محيطهم، هم أول من يسعى إلى أن يكونوا مصلحين اجتماعيين لإصلاح محيط غيرهم. والأمر الذي يدهشني هو أنه يشترط في المشتغلين بمهنة الإصلاح الاجتماعي التي نشأت منها معظم حركات الإصلاح الاجتماعي أن يكونوا خريجي الجامعات، علاوة على دراسة عالية أخرى لا تقل عن سنتين أو ثلاث، ولم يشترط فيهم حيازة صفات الشخصية الجيدة والاتزان العاطفي اللازمين للنجاح في معترك الحياة. ولذلك كنت لا أتردد عن تثبيط همم مئات الأفراد الذين كانوا يطمحون في ولوج باب الإصلاح الاجتماعي لأنهم كانوا أوضح مثل لفرار المرء من واجب إصلاح نفسه.

وقد ثبت لي من تجاربي أن هذه الأعراض أصبحت تتكرر يوماً بعد يوم في المجتمع، ويخيل إليّ أن البلاد كلها باتت تعاني عقدة النقص منذ عدة سنين فتارة نعزو بؤسنا إلى رجال المال، وتارة إلى هذا الحزب، وتارة إلى النظام الرأسمالي أو طبقة الأغنياء الموسرين أو تقدم الصناعة الآلية

أو الإنتاج المتزايد. والحقيقة أننا كنا نلوم كل شخص إلا أنفسنا وأخطاءنا السابقة وأنانيتنا المطلقة التي طغت على الغني والفقير.

ومن الغريب أن تمخضت السنون الاخيرة عن انضواء عدد ضخم من الناس تحت لواء بعض مشروعات الإصلاح الاجتماعي، إذ أن كل هذه المشروعات قائمة على أساس هذا الضعف النفسي الكامن في جمهرة كبيرة من الشعب.

أما المشروعات التي أشير إليها فهي تلك التي يدعون أنها لا تقي الفرد مغبة فشله وانفعالاته وعاداته الخبيثة فحسب بل وتحميه أيضاً شر تقلبات الحياة عموماً. والعجيب في هذا أن ترى الآن ملايين المواطنين العاجزين عن تدبير ميزانيتهم الشخصية أو العائلية متحمسين بشدة لمشروع اقتصادي قومي عام.

وبقدر ما تصبح أمثال هذه الإصلاحات الاجتماعية ركناً دائماً من أركان البناء الاجتماعي، ستكون هي نفسها العامل الأول الذي سيهدم أولئك الناس المقصود إنقاذهم وتحسين حالهم. والهدم هنا معناه حرمان أولئك الأفراد من حمل أعباء المسئولية هم أنفسهم، ذلك الحرمان الذي نشهده بين الأسر، التي يجب أن يعتمد فيها على نفسه. وأن ما يحدث لهذا الابن لهو بالضبط ما يحدث لكافة المواطنين.

وقد أطلقوا على بعض هذه الإصلاحات أنها محاولات لخدمة الإنسان المنسي.. أما الإنسان المنسي في عرف علم النفس؛ فهو ذلك ينسى نفسه ويحيل مسئولية هناءته وسعادته على غيره.

وكنت أفضل قبل الشروع في معالجة الشبان والكبار أن أشرح لهم مدى ما يستطيع أن يقدمه لهم الطبيب النفسي وما لا يستطيع تقديمه إليهم؛ فكثيرون كانوا يأتونني وهم يأملون أن يحيلوا مشاكلهم عليّ، ظانين أني سرعان ما سأوفق إلى علاج سريع لا ألم فيه البتة. وهذه الأمنية أمر طبيعي، ومما روجها وأشاعها نظريات التحليل النفسي التي تشجع الفرد على طرح عقده على المحلل، كأن تشكو فتاة عقدة أوديب مثلاً، فإذا وقعت في حب المحلل النفسي أمكنه أن يوجه شحنتها الجنسية الاتجاه السليم. فكنت لا أفتأ أقول لمن يأتيني منهم: إذا فرض أن أصابك برد أو أي مرض عضوي آخر فإن الطبيب عادة يرسم لك علاجاً ما كأن تشرب ملعقة مليئة كل ساعتين أو تبتلع أنواعاً متعددة من الأقراص كل ثلاث ساعات وأنت في الغالب تجد هذا النوع من العلاج سهلاً مستساغاً، أو قد يطرحك فوق مائدة العمليات ويستأصل لك الزائدة الدودية أو يصلح لك اعوجاج عظامك دون أدنى ألم، ومن ثم تظل طريح الفراش في طور النقاهة السعيد.

ولكن رجل علم النفس لا يمكنه أن يصف مثل هذا النوع من العلاج عند تشخيصه لمشكلة نفسية؛ فهو لا يستطيع إزالة العادات الخبيثة باستئصالها من مخك، ولا يمكنه أن يلقحك بجمهرة من العادات

المرغوبة. ولكنه ربما ينجح في تشخيص مشكلتك، ويقدم إليك بعض النصائح النافعة في صورة أعمال يجب أن تؤديها، وأنت وحدك الذي يمكنه أن يمارس هذه النصائح عملياً. وغالباً ما تتألف هذه النصائح من تلك الأعمال التي تأبى الآن أن تفعلها أو التي تجدها مملة غير مسلية.

وبعد أن أفرغ من فحصك وتشخيص حالتك وتوافقني على ذلك سأطلب منك أن تؤدي أمراً أو أمرين، أحاول ألا يكون فيهما صعوبة بالنسبة لحالتك الراهنة. فإن أفلحت في تنفيذ ما أشرت عليك به تكون قد خطوت الخطوة الأولى في طريق التحسين. وعندما تعود إليّ نشرع في رسم برنامج آخر. أما إذا لم يمكنك تنفيذ تلك الاقتراحات الأولى؛ فالأفضل ألا ترجع إليّ لأني كرجل سيكولوجي لا أستطيع أن أفيدك شيئاً. فواجبي تقديم النصح فحسب، وواجبك القيام بالعلاج.

وكنتيجة لهذه المقدمة كنت أرى بعض الناس مرة واحدة فقط، والبعض الآخر أراه في فترات غير منتظمة سنين طويلة. وبينما أنا أكتب هذا الفصل جاءني رجل كنت قد فحصته منذ سنة مضت. وكان طبيبه الخاص هو الذي بعث به إليّ. بعد أن فشل فحصه الطبي المتكرر في الوقوف على أسباب نوبات الإنهاك الحادة التي كانت تصيبه بين وقت وآخر.

وقد أظهر الفحص، أن هذا الشخص لم تنقصه العادات الجيدة وإن كان يفتقر في نفس الوقت إلى الكثير من عادات الحياة العادية

البسيطة. وكانت نوبات الإنهاك التي تنتابه تجعله غير قادر على القيام بأعباء أي عمل متواصل، أو كان يظن ذلك في نفسه.

أما رأيي الخاص فهو أنه كان يعاني شحنة زائدة جداً من الطاقة لا يعبر عنها التعبير الكافي. وكان حكمي في هذه المشكلة جائزاً الى حد بعيد، فقد قلت له أنه إذا لم يوفق إلى عمل ما ويستمر فيه مدة عام كامل فليس عندي ما أقوم به نحوه.

وعندما جاءني فيما بعد قال لي أنه حضر خصيصاً، كي يبلغني أنه حصل على وظيفة، وأنه لا يزال يعمل بها منذ سنة، على الرغم من نوبات الإنهاك التي تصيبه بين وقت وآخر، فتلزمه الاعتكاف بالمنزل بضعة أيام في كل مرة، وأنه يريد أن يعرف ماذا يمكنه أن يفعل غير ذلك، لأن الفحص الطبي الأخير وجده في صحة ممتازة يحسد عليها.

ومن ثم شرع يبسط لي برنامج نشاطه الذي خصصه لقضاء أوقات فراغه فوجدته قد خصص ليلة من كل أسبوع يمضيها في الجمعية التي ينتمي إليها، وزيارة أسبوعية: إما لأهله أو لأهل زوجته، وأمسية يصحب فيها زوجته إلى السينما أو إلى أحد المطاعم، وليلة يقضيها في اللعب مع معارفه وأصدقائه. وقد أدرج في حسابه ليلة للإنهاك الذي يصيبه، إذا فرض أن حدث. ووجدت أنه لم يعد يخصص من وقته شيئاً لهويته الأساسية وهي المطالعة، ولا عجب فقد درس الكتب كثيراً، وخبر الناس قليلاً.

ومنذ ذلك الوقت، ونجاحه في تنفيذ ذلك البرنامج يضطرد، حتى أني أيقنت أنه سيكتسب من عادات التعبير عن طاقته عدداً كافياً، يجعل نوبات الإنهاك عنده نادرة الوقوع.

وقد قال لي بعض زملائي أنني بلغت حد التطرف في إصراري على استقلال المرء واعتماده على ذاته، خصوصاً أولئك الذين يشجعون مرضاهم على كثرة التردد عليهم. وجوابي على ذلك أني أفضل أن أدع المريض يرتكب الخطأ بنفسه عن أن أرتب له أمر أخطائه، فقد قلت لمئات المترددين على أن ارتكابهم سبع أخطاء خير من ارتكابهم خطأ واحداً وليس هناك شك في أن الاتجاه السيكولوجي الحديث ينحو إلى جعل الأفراد مسئولين عن أنفسهم وعن تصرفاتهم وسعادتهم.

ولا أنكر أن أي شخص عادي قد يحتاج إلى معونة مؤقتة، سواء كانت معونة نفسية أو طبية، روحية أم مالية. فقد أحالت الأزمة العالمية كثيراً من المواطنين المستقلين إلى حالة يرثى لها؛ فإذا حاولنا إزالة هذه المصاعب التي يرزح تحتها هؤلاء الناس، عن طريق اعتمادهم على غيرهم لإزالتها، سواء كان هذا الغير هو الطبيب النفسي أو الدولة، فنحن إنما نخطئ في حق أولئك الأفراد وفي حق أولئك الذين يجب أن يساعدوهم، ومثل ذلك كمثل من يشجع شخصاً على بيع أثمن ما لديه لقاء قدح من الحساء، لأن هذا الإجراء، يحرم المجتمع تلك الفئة من الناس التي تجعل مبدأ الكفاية الذاتية أمراً ممكناً في هذه الحياة.

وإن من يدرس تعاليم عيسى الدينية، يدرك لأول وهلة أنها تدور حول الفرد، وليس حول إقامة نظام اجتماعي جديد. وقد دلت المكتشفات الحديثة على أن عيسى كان أسلم تفكيراً من زعماء عصرنا البارزين فهو لم يكن مصلحاً اجتماعياً بل كان مصلحاً للناس. وكان النظام الاجتماعي الذي يهمه هو "ملكوت الله" الذي يدخله الناس كل بحسب عمله لا لأن الله ملزم بقبولهم فيه. فهو قد رفض بعزم راسخ وحذر متناه، أن يربط نفسه بأي مشروع اجتماعي؛ فعندما كانوا يسألونه إذا كان دفع الجزية لقيصر حلالاً أو حراماً كان يجيبهم بقوله: "دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله"، وكان يتهم الفريسيين، إنما في الناحية الدينية فقط بالنسبة لمعتقداتهم التافهة، كما كان ينتقد الأغنياء لا لثروتهم، إنما لأنهم وضعوا الثروة فوق كل شيء آخر.

وكان يقول لتلامذته "لكن اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره وهذه كلها تزاد لكم" وطرد صيارفة اليهود من المعبد[٢٦] ولكنه لم يصادر أموالهم. وكان يأكل مع الغني والفقير على السواء، وبينما كان يحث على الحدب على الفقير لم يشجع الفقير على حسد الغني. ولما جيء به لمحاكمته أمام بونتياس بيلاطيس[٢٧] لم يجد الأخير أي دليل يدين به المسيح، ويثبت به أنه كان ينادي بنظام اجتماعي جديد أو بأي نوع من التأمين الاجتماعي لا ينبع من صميم أخلاق الفرد نفسه.

---

(٢٦) لما وجد المسيح اليهود يبيعون البقر والغنم بالهيكل والصيارف جلوساً فيه صنع سوطاً وطرد الجميع من الهيكل وكب دراهم الصيارفة وقلب موائدهم مستنكراً أن يجعلوا من بيت الله بيت تجارة.
(٢٧) الحاكم الروماني.

وفي الوقت الذي كان فيه المسيح لا يهمل شأن المطالب المادية للحياة، نراه يوجه أكبر قسط من اهتمامه نحو جعل الفرد مستقلاً وسامياً عن أي مستوى مادي من مستويات الحياة، مخلصاً لسنن الاستقامة والكمال.

وقد قام نفر من رجال الدين يفرقون بين النظر إلى الحياة نظرة مادية وبين النظر إليها نظرة دينية فيقول أحدهم "أن الرغبة في المال وعبادة الرخاء هما صنما القرن العشرين الزائفان" ومع ذلك تجد بعض الزعماء الدينيين ينادون بمبادئ أخرى مختلفة كل الاختلاف، ومنهم من ذهبت شهرته حداً بعيداً، بعد أحاديثه الفياضة عن إعادة توزيع الثروة، وإنشاء البنك المركزي، حتى بلغ عدد تابعيه عشرة ملايين نفسا، وتعديل نظام الملكية وموازنة الإنتاج بالنسبة لحاجيات الاستهلاك.

لا شك أن مثل هذه المبادئ المقصود بها الإصلاح الاجتماعي وغيرها من المبادئ التي تنادي بها بعض الهيئات الدينية مخالف لتعاليم عيسى عليه السلام، الذي لو كان حياً بيننا الآن لآوى أولئك المشردين الذين لا مأوى لهم في بيوت الله الخاوية، ولأوحى إلى كل من حظي بعمل يرتزق منه أن يمد يد المساعدة إلى أخيه العاطل، ولأفضى إلى السعيد المجدود أن يشرب قليلاً من كأس البؤس الذي يتعاطاه غيره ممن هم أقل منه حظاً، ولا قنع الغني والمقتدر أن يبذلا مالهما وخدمتهما في سبيل إيجاد عمل مناسب للمتعطلين، ولأمكنه أن يحيل كل هذه الآلام والمتاعب إلى قوة روحية عنيفة وشعور جارف يحسه كل شخص بالقدرة

على الاعتماد على ذاته: ولو كان يعيش وسطنا لبذل العون المادي لكل من يطلبه كما يفعل، لكنه لم يكن ليعد الناس الطمأنينة في هذا العالم المادي، بل كان يسوق إلى الغني والفقير على السواء القيم الخالدة للحياة الآخرة على أنها مفتاح الحياة الغنية في عالمنا الفاني المندثر. فتراه بدل أن يخضع الضعيف لنظم آلية لا معنى لها، يحاول أن يجعل القوي إنساناً ذا عاطفة يمد يد المعونة إلى أخيه الضعيف من تلقاء نفسه وبوحي شعوره.

إن مثل هذه التأملات السالفة قد استقيتها من وحي عقيدتي الدينية وإيماني. أما من الناحية النفسية فكثيراً ما يصادفني أناس لا يكفون عن التماس ما يبرر ضعفهم. إني أسجل أن مثل ذلك الاقتراح السابق ليس إلا دليل الفشل والشعور بالنقص، إذ ترى أصحابه وكأنهم يعترفون بصراحة قائلين: "نحن رجال الدين قد أخفقنا في حمل رسالة نبينا، وعجزنا عن بث روح الإيمان بالله في نفوس رعايانا. ولما كنا قد فشلنا في غرس العادات الدينية الأساسية في قلوب الناس فلا شك أن النظام الاقتصادي القائم فاسد، ولهذه الأسباب مجتمعة استقر رأينا على تغيير هذا النظام."

أما كيف يحققون هذا التغيير دون انتقاض المبادئ الأساسية للدين ومخالفتها صراحة، فهو سؤال لا جواب له. وعلى أي حال، ليست هذه الوسيلة هي الطريق المؤدي إلى الحياة الغنية كما يراها رجل علم النفس أو الدين الذي أوحى بعودتي إلى التعلق به. فلو قلت لأولئك الشبان

الذين يقصدونني بغية حل المشكلات التي تصادفهم أبان فترة التعليم، إن نظام التعليم الحالي فاسد ويجب إلغاؤه فوراً لما ساعدتهم بشيء، وإذا صرحت لأولئك العاجزين عن كسب الأصدقاء بأن القيم الاجتماعية القائمة خاطئة، وإذا أعلنت لأولئك المتعطلين أن نظام العمل الساري يحتاج إلى إصلاح وتعديل لما كنت مخلصاً في تقديم المعونة إلى كل أولئك الناس. وأنا لا أنكر أن نظام مؤسساتنا الاجتماعية والاقتصادية نظام ناقص، ولكن بلوغ هذا النظام حد الكمال ممكن التحقيق إذا تولاه أفراد بلغوا بأنفسهم حد الكمال.

آفة التعليم

"بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ"

(يونس) ٣٩

برغم أن خبرتي المهنية كانت قاصرة على العاديين من الناس، أي أولئك الذين لم يبلغ شذوذهم حد المرض، إلا أني صادفت بعض المصابين بعادات جنسية سيئة أو برذائل معروفة، ومع ذلك فإن أشد هذه الرذائل شيوعاً بين عملائي هي تلم الرذيلة التي لم يكن أحد منهم يعتبرها رذيلة، وأعني بها المبالغة الزائدة في التعليم والتطرف الشديد في النهل من الثقافة.

وإن التعلق المفرط بالتعليم الرسمي المعترف به لهو إحدى الظواهر البارزة في التاريخ الأمريكي. فقد بلغ عدد طلبة الجامعات عام ١٨٨٩ في الولايات المتحدة ٥٥٦٨٧، بينما قفز هذا الرقم عام ١٩٣٨ إلى ١,٣٤٦,٨٥٦ أو بمعنى آخر بلغ أربعة وعشرين ضعفاً. وفي عام ١٩٢٠ كان ثلث أطفال الولايات المتحدة يتلقون التعليم الثانوي كله أو قسطاً منه ثم بلغت هذه النسبة الثلثين عام ١٩٣٨، وكان الاتجاه السائد حتى نشوب الحرب الأخيرة يتجه نحو الإسراع في زيادة عدد طلبة المدارس الثانوية والكليات.

وبغض الطرف عن هذا الاتجاه الطبيعي، فإن حركات الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي كلها لا تهدف إلا إلى هذا الغرض، حتى أصبح الأمل في تعليم كل طفل بالجامعة أو ما يوازيها هو الهدف الذي يداعب قلوب الآباء.

وطبيعي أن الغرض من نشر التعليم بهذه الصورة هو الرقي بالأفراد، وأعدادهم لمواجهة الحياة، ولكن التجارب التي أجراها رجال علم النفس في السنوات الخمس السابقة، أثبتت أن التعليم المدرسي بعد المدارس الابتدائية لا يفيد قليلاً أو كثيراً في تحسين الشخصية والخلق، بل على العكس من ذلك اتضح أن: أولئك الأفراد الذين لم يتلقوا أي قسط من التعليم لا يقلون في شخصياتهم أو في صفاتهم الشخصية عن خريجي الجامعات وأن الطلبة البلداء في المدارس الثانوية أو الكليات لا يفترقون في صفات الشخصية عن أكثر زملائهم اجتهاداً.

وبناء على اختبارات قياس الكفاءة المدرسية، وغيرها من الاختبارات، كاختبار روت الشخصية المنبسطة والمنطوية، واختباري لقياس، اتضح أن الطلبة المبرزين في الذكاء المدرسي ذوو شخصيات ضعيفة، كما أن أولئك الراسبين أو الضعاف في اختبارات الذكاء، تجدهم ذوي شخصيات ناجعة وقد أثبتت الملاحظات أيضاً أنه بينما تتحسن شخصيات بعض الطلبة خلال فترة التعليم الجامعي أو الدراسة الثانوية، نجد شخصيات البعض الآخر تنحط وتتدهور. وبمعنى آخر أن الكفتين

متعادلتـــان، أو أن التعلـــيم لا يقـــدم، ولا يـــؤخر فـــي محـــيط تحســـين الشخصية.

وليس هناك دليل واحد في علم النفس. كله يثبت تحسن الخلق أو ازدهار الشخصية نتيجة للتعليم العالي الحالي. بل أن الدليل الوحيد القائم يؤكد أن مثل هذا التعليم لا يفيد الشخصية كثيراً. وهناك ما يثبت عكس هذه النظرية، فإن مواصلة التعليم الرسمي المعترف به وإطالة مدته يؤديان إلى تدهور الشخصية.

ورغم أن هذه النتائج تبدو لأول وهلة شديدة التطرف، إلا أن أصحاب الأعمال والآباء وحتى بعض رجال التربية يؤكدون صحتها وصدقها نتيجة لتجاربهم الشخصية، فلم يعد أصحاب الشركات والأعمال يتلهفون كسابق عهدهم على استخدام خريجي الجامعات، بل أصبحوا يتأثرون عند اختيارهم بنشاط الفرد خارج منهجه الدراسي، ومدى مهارته في التعامل مه زملائه، أكثر من اهتمامهم بنجاحه وتفوقه عند أساتذته.

وبهذه المناسبة يروي عن كانون حين سأله أحد الطلبة الذين لم يتخرجوا بعد عن رأيه في التعليم الجامعي، أنه قال (لا أظن أن التعليم الجامعي يضر الطالب المتوسط الذكاء كثيراً).

ورغم أن جمهرة كبيرة من المفكرين تميل إلى مثل هذه الآراء إلا أن ذيوعها لا يزال محصوراً في نطاق ضيق، وعندما يحين الوقت الذي

تثبت فيه صحة هذه النظريات عن طريق الاختبارات العلمية أو شبه العلمية، ستجدهم ينظرون إليها بعين الجد والاعتبار وعندما يروج انتشار هذه النظريات بدرجة كافية بين الناس سنلمس في نظمنا التعليمية التي تعتبر حديثة نسبياً، حاجتنا إلى انقلاب شامل فيها، طال انتظارنا له وفات وقته من زمن بعيد.

وقد أمكنني تقديم يد المعونة إلى عدد كبير من الشبان بأن أرسم لهم الخطة التي يسيرون عليها في تعليمهم عن طريق اكتشاف لياقتهم بواسطة الاختبارات النفسية.

ولكني كثيراً ما كنت أمنع المئات من تحقيق المشروعات التي كانت تداعب أفئدتهم، وذلك لأن شخصياتهم أصبحت عاجزة عن مواصلة عملية الامتصاص. وصار لزاماً عليهم التعرف إلى البشر الحقيقين، لا إلى البشر الذين تغص بهم كتبهم، وباتوا البشر الحقيقيين، لا إلى البشر الذين تغص بهم كتبهم، وباتو في حاجة إلى وضع نظرياتهم التي تعلموها موضع الاختبار، بدلاً من حشو أدمغتهم بنظريات جديدة، وبدلاً من استمرارهم في صهر أنفسهم في بوتقة العلم والمعرفة أمسوا في أشد الحاجة إلى صهر هذه المعلومات في بوتقة الحياة التطبيقية. فقد أضحوا في حاجة إلى الكف عن الامتصاص كالإسفنج، تلك العملية التي يلتذون منها كل اللذة، حتى أصبحت رذيلة فيهم وصاروا في حاجة إلى البدء في عملية البذل والإنتاج التي يرهبونها ويخافونها.

وهناك الكثير من الأسباب الوجيهة التي تدعم نتائج رجال علم النفس بخصوص الآثار الضارة الناجمة عن التعليم. وأن ملفاتي وحدها تحوي ما ينوف عن المائة قصاصة من التصريحات التي أدلى بها بعض رجال التربية البارزين، وبعض الهيئات التي وكل إليها دراسة نظام التعليم القائم، وكلها تشير إلى الأخطاء والعيوب السارية في نظامنا التعليمي. ومع ذلك فإني سأقتصر فيما سأدلي به على الأسباب التي ظهرت لي أبان تجاربي مع الأفراد وعلى نتائج الدراسات التي قام بها غيري من رجال علم النفس. الواقع أن الطريق الموصل إلى الشخصية الجذابة هو نفس الطريق المتبع للحصول على العادات الانبساطية الذي سبق شرحه. ويتلخص في اكتساب المرء للخبرة التي تؤهله لتحويل طاقته في اتجاهات نافعة تشبعه، فالطفل بطبيعته، أول مستهلك لطاقته داخلياً، وقدرته على الاستهلاك أو الامتصاص أكبر من قدرته على الإنتاج. أما الشخصية الجذابة فأولى صفاتها الإنتاج، بحيث يفوق إنتاجها استهلاكها. وبمعنى آخر يجب أن يكتسب الشخص الجذاب عدداً وفيراً من أنواع المهارة، في إرضاء الغير وإفادتهم. أما كون هذه المهارة ترضيه هو نفسه أو تشبعه فإن هذه تأتي في المرتبة الثانية. ولما كان العالم كله، والناس جميعهم يسخرون مواردهم في سبيل الطفل ويمنحونه كل ذاتهم، وجب بالمثل أن تسخر الشخصية الفردية نفسها وجهودها في سبيل العالم، أعني في سبيل الغير.

وإذا كانت فترة التعليم تساعد على تنمية مجموعة من العادات المرغوبة والعادات الانبساطية إلا أنها في الوقت نفسه فترة امتصاص،

وأكثر العادات التي تنميها في الواقع هي عادات الإصغاء والمطالعة والدراسة. وبقدر ما تطول هذه الفترة تزداد عادات الامتصاص ثبوتاً ورسوخاً. ولما كانت فترة التعليم بالمدارس الثانوية والكليات وما بعد التخرج تزيد عادات الامتصاص تأصلاً، فغالباً ما ترى أن عادات الإنتاج تتعطل وتتأجل إلى حين. فتجد الفرد منهم يعتاد بالتدريج على الاستزادة من الإصغاء والمطالعة والدراسة، وعلى التقليل من العمل والنشاط. فتبرز فيهم عادات الامتصاص أو الانطواء بشكل بشع حتى أن الواحد منهم يصبح بعد تخرجه عاجزاً عن معرفة الخطوة التالية التي عليه أن يخطوها. وقد قال لي أحد زواري من الطلبة الذين لم يتخرجوا بعد في إحدى الجامعات الشهيرة، أنهم كانوا يعتبرون عادة سؤال طلبة السنة النهائية عما سيفعلونه عقب التخرج عادة مرذولة. وحتى إذا كان ذهن الطالب مشغولاً بمهنة ما، كان عليه أن يقضي سنين قبل أن يكتسب العادات الجوهرية اللازمة له في محيط عمله.

وقد بلغت عادات الامتصاص في حالات كثيرة عرضت علي، حد الرذيلة، وأعني بها رذيلة مواصلة التعليم والثقافة والحياة الفكرية التي ثبت أنها العقبة الكؤود لتكوين الشخصية الجذابة الإنشائية. ولعل أحد الأعراض الشائعة للشخصية الراكدة التي بالغت في التعليم، هي الميل إلى علم النفس أو قراءة الكتب التي يظن قراؤها أنها تصور علم النفس. ولما كانت عجلات طاقة مثل هذا الشخص لا تدور إلا حول نفسها، لذا تجده يميل إلى دراسة كل ما يجعلها تستمر في الدوران، وهذا لا شك خير مثل للاتجاه الانطوائي. أما الشخص المنبسط أي المتمتع بعدد

كاف من الكفايات المرغوبة فليس في حاجة إلى دراسة علم النفس لأنه يمارس فعلاً، إذ لا يمكن اكتساب العادات الطيبة من وجهة نظر علم النفس من قراءة كتب علم النفس، اللهم إلا إذا أمكن للمرء حذق لعبة الجولف من قراءة الكتب المؤلفة عن الجولف، أو تعلم السباحة من مطالعة الكتب التي تبحث في السباحة، ولقد حذرت ما ينوف عن الألف نفس من الانغماس في مطالعة كتب علم النفس، فإن كانت ثمة فائدة تعود على المرء من التعمق والاسترسال في قراءة كتب الطب والتشريح، وهذا أمر مشكوك فيه، فلا بأس إذن أن ينكب بالمثل على كتب علم النفس. فكلتا العادتين تخلق شخصاً دائم الهجس بالمرض، وهما من أعراض الإفراط في التعليم والمبالغة في عادات الامتصاص.

وما أشبه التعليم بفترة الحضانة، التي رغم أن الغرض منها هو إعداد الناس للحياة النافعة المفيدة، تجدها تميل بالتدريج إلى إطالة المدة التي يمضيها الطفل بعيداً عن تيار الحياة العلمية. فكلما طالت المدة التي يبقى فيها المرء محتجباً عن حقائق الحياة العملية انخفضت قدرته على مواجهتها عندما يحين وقت مجابهتها. هذا بالطبع مع استثناء حالات معينة كدراسة الطب مثلاً، التي تستلزم تمضية وقت طويل في تمرين شاق متواصل بالمستشفيات عقب التخرج مباشرة. فكل تلك الساعات التي يقضيها الطالب بالمدرسة، وكل ذلك الارهاق، وتلك النظم التي يتعرض ويخضع لها داخلها، تعتبر عطلة للمرء خارج محيط الحياة، بدل أن تكون إعداداً له على مواجهتها. ويؤسفني أن أقول أن أخفض المستوى الدراسي الذي جاء كنتيجة لا مفر منها للرغبة في حشد

أكبر عدد ممكن من الأطفال في المدارس، يجعل من التعليم بالنسبة لأولئك الأطفال القديرين، الذين كان بوسعهم الاستفادة إلى حد كبير من النظام القديم، مجرد نزهة خلوية. كما أن الهبوط بمستوى التعليم، حتى يمكن لأكبر عدد من التلاميذ اجتياز السنوات المقررة في المدارس والجامعات، ليعتبر في الحقيقة فضيحة مشينة، ليست فقط بالنسبة للمواد الدراسية والقدرة على استيعابها، بل بالنسبة للطلبة الضعفاء الذين كانوا هم المقياس وكان هذا الخفض كبيراً، خصوصاً في ميداني الحساب والعلوم الرياضية. وهذه العلوم بالذات هي إحدى المجموعات التي أثبت العلماء تأثيرها الحسن على الشخصية. فمادة الحساب تساعد على تكوين أفضل العادات وأدقها، وإذا وضعت موضع المقارنة مع غيرها من المواد، كاللغات والعلوم الاجتماعية تجد المستوى المطلوب لمادة الحساب يتطلب عناية أكبر وجهداً أشد. فكلما اتاحت المادة المدرسية للطالب الفرصة لعدم الاكتراث أو عدم العناية، كلما كانت هذه المادة ذات ضرر بليغ في تكوين صفات الشخصية المرغوبة. وينطبق هذا الكلام بالطبع على المستوى العام، وليس على الشواذ من الطلبة، الذين يتفوقون على الرغم من ضعف البيئة التعليمية المحيطة، ومهما كان نوع المواد التي يدرسونها.

وقد قام بعض علماء التربية ينادون بإلغاء نظام منح الدرجات كوسيلة لانتقال الطالب من فرقة إلى أخرى. وأشاروا بنقل جميع الأطفال بلا استثناء آلياً من فرقة لأخرى بغض النظر عن مستواهم. والواقع أن

تأثير مثل هذه المشروعات على تكوين عادات العمل وإنماء حاسة الشعور بالمسئولية يكاد يكون محطماً مدمراً.

وقد استمرت الثورة ضد نظام الدرجات سنين متواصلة ونالت نجاحاً منقطع النظير. ومع ذلك فإن نظام التصحيح يمنح الدرجات، هو أحد الموضوعات القليلة، التي نجد فيها وجهاً للشبه بين التعليم، والعالم الحقيقي، بما فيه من دوافع وجزاءات، وما به من امتزاج بين العدالة واستعداد البشر للانزلاق في الخطأ. وقد فسرت لأولادي مراراً أوجه الشبه بين هذا المظهر من نظاهر تعليمهم، وبين تجاربهم المستقبلية؛ فالدرجات الممتازة لا تمنح إلا في حالتين: الأولى عندما يأتي الإنسان عملاً جيداً، والثانية عندما يتعلم الطالب كيف يرضي مدرسه. والحالة الثانية لا تقل في أهميتها عن الأولى. وكذلك النجاح المهني والرواتب السخية لا يتحصل المرء عليهما بحسن أدائه لعمله فحسب، بل بتأديته بطريقة ترضي الرئيس أو صاحب العمل؛ فالأول نوع من أنواع الذكاء المدرسي والثاني معناه الذكاء عند الاتصال الشخصي بالناس، وبمعنى آخر عادات الانبساط المحبوبة التي تجعلك تهتم بميول ورغبات الغير، وأود لو أعترف بأن النوع الثاني أهم من الأول.

وأن كل خطوة في سبيل خفض أو تسهيل النظام والمستوى التعليمي، تؤدي بالتعليم الرسمي الحالي، إلى أن يكون مثله كمثل مربية لينة تدلل أطفالها، فهو يشجع على تكوين عادات الامتصاص أو الرضاعة الفكرية والخلقية في الطلبة.

وإنها لمأساة، أن يتم ذلك العدد الغفير من الناس دراستهم التي أمضوا فيها سنين طويلة، ومروا فيها على ألوان مختلفة من التعليم، دون أن يكونوا في أنفسهم استعداداً خاصاً، أو فكرة عن المهنة التي سيلتحقون بها.

فكثيرون هم الذين يترددون عليّ كي أجري عليهم اختباراً أساعدهم به على اختيار المهنة التي تناسبهم، أو أكتشف فيهم مواهبهم الخفية. ونادراً ما يدركون أن المواهب تكتسب ولا تكتشف، وأن الوقت المناسب للتفكير في مدى صلاحية المرء ولياقته، هو تلك الفترة التي لا يزال فيها متسع من الوقت لإنمائها.

هناك لحظتان حرجتان يلزم عندها اختبار استعداد المرء ومواهبه الكامنة، الأولى قبل التصميم على الالتحاق بالمدرسة الثانوية مباشرة، سواء كانت الدراسة علمية أو أدبية أو صناعية أو موسيقية أو تجارية أو فنية، والثانية قبل التصميم على الالتحاق بإحدى الكليات مباشرة.

وقد تقدم علماء النفس تقدماً ملحوظاً في اختبارات قياس صلاحية المرء وتشخيصها، وبذلك أمكنهم النصح بنوع التعليم الذي يصلح له الفرد، ويعود عليه بالفائدة. ومع ذلك فإن مثل هذه الاختبارات لا تتطلب أكثر من ثماني أو عشر ساعات لإنهائها، بينما نظام التعليم الحالي يصر على فرض ثماني سنوات من التعليم الخاطئ على طلبته بدل أن يتيح لهم تلك الساعات الثماني لإجراء التشخيص الناجع المفيد.

فليست الشخصية الجذبة في حاجة إلى عدة من المهارات المختلفة فقط بل هي تتطلب بالمثل تفوقاً نسبياً في بعض الميادين وتفوقاً ملحوظاً في ميدان آخر. أما التفوق الملحوظ فيكون في الميدان المهني، وأما التفوق النسبي فيكون في ميادين الرياضة والفنون الاجتماعية والتسلية. وتكاد ترجع معظم حالات الشعور بالنقص التي نصادفها الآن كلية إلى الفشل في تنمية عادات معينة من عادات الفوز والنجاح.

أما النظام التعليمي بوضعه الراهن فلا يشجع على تكوين أنواع معينة من التفوق، فتراه يخمد صلاحية المرء بدل أن ينميها، وفي محاولته إعداد الأطفال للحياة، تجده عاجزا عن تكوين عادات التفوق في مراحل خاصة من الحياة.

ولما كان هذا النظام يقصد التقدم الفكري هدفاً، لذا كان الأساس الذي يتبعه في انتقاء المدرسين هو المؤهلات المدرسية قبل كل شيء، وأعني بذلك أنه يجب أن يكون المدرس قد أتم تعليمه أو حصل على درجة الماجستير أو الدكتوراه، وهذا النظام يقود إلى ما يصح أن ندعوه "اختيار طبقة المدرسين من نفس الأسرة" لأنه يجنح إلى تخليد نفسه أبد الدهر هو ومثله الفكرية السائدة باختيار المدرسين الذين يبالغون بدورهم في تقدير هذه المثل فتراهم يدربون على شرح دروسهم فحسب لا على التقدم بشخصيات طلبتهم ويعتقدون أن تحسين الشخصية واكتساب العادات الانبساطية يتمان بين سني العاشرة والرابعة عشر أسرع من أي

فترة أخرى، عدا الفترة ما بين السنة الأولى والعاشرة. أما الحقيقة فهي أن الطفل الأمثل من وجهة نظر المدرس هو ذلك الطفل الهادئ الخامل المستكين في المحيط الضيق حوله بالفصل. فكلما كبر الطفل، وكلما حاول تكوين شخصية لنفسه قائمة بذاتها تعرض لنقد مدرسيه.

والنتيجة الحتمية للنظام الحالي هو أن يكون المثل الأعلى للشخصية الناجعة لدى أولئك المدرسين هو بلا شك "الشخصية القابلة للتشبع"، لا الإيجابية المبتكرة.

وليس هذا الاكتشاف هو الأول من نوعه بل هو أحدث ما جاء في هذا الباب. وقد أثبت هذا الاكتشاف صدق النتائج التي وصلنا إليها في دراسات سابقة متشابهة، حتى صار موضع تقدير الباحثين. فإن هذه الظاهرة هي النتيجة الحتمية لنظام تعليمي يتدرون فيه المظاهر الفكرية على حساب بقية المظاهر ويتوقف اختيار المدرسين فيه على الاعتبارات المدرسية المعترف بها.

وتكاد مهنة الطب، وفترة الدراسة التي يجب أن يمضيها الطبيب تكون النقيض التام لنظرية اختيار المدرسين من نفس الأسرة؛ فالتدريس في ميدان الطب يكاد يكون فخراً يزهو به المزاولون لمهنة الطب، وليست معظم المواد التي تدرس في مدارس الطب يلقيها أطباء يمارسون المهنة فحسب بل أن نظام إقامة الأطباء تحت التمرين في المستشفيات وأنظمة هذه المستشفيات يقوم على أساس العلاقة بين الطالب أو

الطبيب الذي تحت التمرين وبين الطبيب المدرس. وربما كان هذا الميدان مثلاً أعلى يصح أن يقتدى به في مختلف ميادين التعليم.

وقد تكون أكثر المظاهر هدماً في التعليم هو ذلك المظهر الذي يفخر به التعليم أكثر من غيره، وأعني به "خلق الفكر الحر". إن الفكر الحر وما يتبعه من التحرر الفكري هما في الواقع أصنام التعليم. وبالرغم من ذلك أصبح التحرر الفكري أمراً ممدوحاً ليس بين الحلقات العلمية فحسب، بل بين الحلقات الخلقية والاجتماعية والدينية والسياسية أيضاً، بينما توصم المحافظة على القديم بالرجعية.

وما عملية التعليم الآن سوى عملية تحرر فكري من هذا الطراز؛ فعلم طبقات الأرض يؤكد لنا أن العالم لا يمكن أن يكون قد خلق في سبعة أيام، ولا الإنسان في يوم واحد، والتاريخ يروي لنا أساطير الديانات المختلفة، وعلم دراسة الأجناس يفسر لنا الوصايا العشر كعادات وتعاليم خاصة بجنس معين، ولذلك فهي لا تسري على جنس آخر في ظروف مختلفة، والفلسفة ترسم اتجاهات التحرر العقلي، وعناصر تشبيه الله في صورة إنسان، التي اصطلح عليها العالم، وعلم الأخلاق يشرح مذاهب السلوك المختلفة التي أنشأها أبيقور وزينو وغيرهما تاركا للطالب اختيار ما يحلو له منها، وكل هذه العلوم قطرة من محيط الموضوعات التي يحررنا بها التعليم من تجاهل الماضي وتقاليده.

إن نظرية التحرر الفكري لهي إحدى مذاهب التعليم التي لا تقل في صوفيتها وبعدها عن العقل، عن أي مذهب آخر من المذاهب الدينية. إذن ما قيمة الفكر الحر في ذاتيه؟

وأي قيمة فعلاً لذلك التحطيم العنيف للتصوير الملموس للمعتقدات الدينية، ذلك التحطيم الذي هو في الحقيقة هدف التعليم اليوم؟

وما هي العدة التي يتسلح بها المرء في صراعه مع الحياة، بعد أن يتحرر من المعتقدات والعادات الفكرية التي اكتسبها أبان سني الطفولة؟

وأين هي تلك المثل السامية التي يمكن أن ينطلق نحوها الفكر الحر، تلك المثل ذات التأثير الأشد إلهاماً والصفة الأقوى إرغاماً؟

كانت الإجابة الوحيدة على هذه الأسئلة في الماضي، تكاد تنحصر في تلك العقيدة التقليدية القائلة بأن تحصيل الثقافة إنما يكون لذاتها، والاستزادة من المعلومات إنما يكون لذاتها أيضاً. أن مثل هذه العقيدة في نظري لأشد سذاجة من العقيدة الدينية عن الروح وخلودها التي يعتبرونها هم ساذجة.

فالتحرر الفكري، كما عاينته بنفسي في حالات كثيرة هو النتيجة الأخيرة لانطلاق المرء من التقاليد والقيود الماضية جميعها، دون أن يستبدلها بعدة كافية من القيود والمثل العليا التي تعينه في المستقبل.

وتبدو أعراض التحرر الفكري بين الشبان في الميل إلى اعتبار الآباء رجعيين، والنظر إلى الجيل القديم نظرة التأخر الشديد، وفي ميل الطلبة إلى أن يتركوا أحراراً يتصرفون في أموال آبائهم أو سياراتهم وغير ذلك من ممتلكاتهم دون أثقال كواهلهم بالتزامات ما أو مسئولية تتفق وما ينفقونه. وكذلك تبدو في الاحتقار الفكري الذي يبديه الطلبة بين آن وآخر للعقائد الدينية والسياسية والخلقية التي يتبعها آباؤهم والتي كانوا يعتنقونها يوماً ما في فجر طفولتهم. وفي النفور الذي يبديه الطلبة المنحدرون من أصل متواضع من مسكن آبائهم، وذلك الاشمئزاز من المهن اليدوية. وفي ذلك الميل المتواصل إلى التبرم بالعمل كمهنة، وتمجيد المهن الفكرية أو الثقافة بغض النظر عن اللياقة والاستعداد لهذه المهن. ونادراً ما يفطن هؤلاء الشبان إلى ما يجعل التعليم والمهن الفكرية أمراً ممكناً هو ما يفيض من الإنتاج والثروة.

ويفصح هذا التحرر الفكري عن نفسه بين الكبار في صورة الافتقار إلى القدرة على التمييز بين مسائل الخير والشر الجوهرية أو ما يسمونه التساهل أحياناً. فإن تخبط الآباء وعدم تأكدهم من أنفسهم يسلبهم ذلك السلطان على أولادهم. فتراهم يستبدلون بهذا السلطان مبدأ الحرية في تربيتهم لأطفالهم، الذين بدورهم يصبحون أشد تحرراً. إن مبدأ التساهل في البيت هو نتيجة لمبدأ التساهل إزاء أفعال الخير والشر في المسائل الاجتماعية والسياسية على وجه العموم؛ فقد انعدم عندهم مثل هذه ذلك الغضب المعنوي الذي دفع السيد المسيح – على رحمته وسعة صدره – إلى طرد الصيارفة من الهيكل. ومع أن هذا التراخي

والتردد لا يسبب لهم أضراراً شخصية بليغة إلا أنه أيضاً لا يوجههم إلى العمل الإيجابي المفيد في هذا العالم الذي أصبح في أمس الحاجة إلى التطهير الخلقي.

ولعل أبرز ما تمخض عنه التعليم التحرري، هم طبقة الأحرار ذوي النشاط الإيجابي الحاد، وأعني بهم أصحاب حركة التحرير، فبعد أن طغى عليهم إيمان حماسي بخطة معقولة لصالح البشرية، تراهم ينساقون – وبهم ثقة لا حد لها في قواهم الفكرية – وراء تحقيق مشروعاتهم، متخطين كل قيود التقاليد، ضاربين بها عرض الحائط. أما شعارهم فهو أن كل ما هو قديم، لا بد أن يكون خطأ، ولا شك في صواب وصحة كل ما هو جديد، فحقوق الملكية، والعقود القديمة، ودستور البلاد والنظم الحالية، هذا إذا لم نشر أيضاً إلى الوصايا العشر والدين عموماً، وكل هذه الأشياء تنتمي إلى عصر الحصان والعربة، وكنتيجة لذلك فلا مانع من اعتبارها أمراً عتيقاً بالياً.

لقد رسمت في هذه الصورة، الخطوط الرئيسية فقط لظواهر الحياة العصرية، ورغم ذلك أحسب أني قد أوضحت التعبير، فأولئك الأطفال الذين تترك لهم حرية العبث بممتلكات آبائهم، وأولئك الأحرار الذين تترك لهم حرية التصرف في حياة الناس وممتلكاتهم، إنما ينحدرون من أصل واحد. فتراهم ينادون بالتحرر من القيود التقليدية دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة البحث وراء فائدتها العميمة إذا ما قورنت بالآراء الحديثة. ومثل عقولهم كمثل سفن انفكت روابطها عن مرساها وراحت تتخبط

رغماً عنها في المهالك؛ فبقدر ما تصل إليه هذه العقول من قوة وجبروت بقدر ما يكون الدمار والهلاك الذي يحل بها.

* * *

إن ميدان التعليم لفي مسيس الحاجة إلى جمع وتصنيف القيم والحقائق الأساسية التي تبحث في الطبيعة البشرية، حتى يمكن المحافظة على تلك التقاليد النبيلة التي اكتسبها الجنس البشري، ووضعها في المكان اللائق بها، وحتى يمكن إخضاع الكبرياء الفكرية لنظام الحياة غير الأنانية، ولن تجد ما يجمع بين تلك القيم الماضية القديمة والمثل الحاضرة الحديثة غير الدين.

الحياة الفنية

"قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ
جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا"

آل عمران ١٥

اتخذت الحياة الآن لوناً جديداً أصبح الشغل الشاغل للهيئات السياسية والاجتماعية والدينية، فبتنا نسمع نغمة جديدة يتغنى بها رجال الحكومات الرسميون والزعماء السياسيون وأبرز رجال الدين والمنادون بالإصلاح الاجتماعي. هذا اللون الجديد من الحياة هو المناداة بتحديد تكاليف الحياة اليومية لكل عائلة، وبصرف معاشات سخية للشيخوخة، بألا تزيد ساعات العمل الأسبوعية عن ثلاثين ساعة، وبأن تصرف تعويضات للمتعطلين، إلى غير ذلك وبمعنى آخر المطالبة بكل الوسائل التي تكفل لكل مواطن مستوى خاصاً من المعيشة في كل الأوقات وفي كل الظروف.

ومهما كانت تفصيلات هذه الآراء فكلها تتفق في أنها تنظر إلى الحياة الغنية من وجهة نظر القرش وتلك الأشياء التي يمكن شراؤها بالمال. ومن تجاربي مع الناس أقول مثل هذا المثل الأعلى للحياة الغنية ليس إلا مثلاً مخرباً مدمراً هداماً. فقد أثبتت التجارب أن الحياة الغنية ليست في المال بل في العادات، وأعني بذلك الخلق فالسعادة لا تكمن

للمرء فيما يمتلكك بل فيما يفعل. وليست هذ فيما يؤجر به الفرد سواء قليلاً أم كثيراً بل فيما يمنحه ويبذله لا من ماله بل من نفسه وكيانه. ولا شك أن السعادة لا تكمن في الحياة السهلة الراكدة، ولكنها تتهيأ في الحياة النشطة المجددة خصوصاً في السن المتقدمة. وهي لا تنبعث من التعليم الكامل والثقافة الواسعة بقدر ما تنبعث من صفات الشخصية التي ينميها المرء في نفسه أو كما سبق إن فسرنا بالأمثلة الشخصية أنها تتحقق للمرء بقدر ما يستطيع به أن يحول طاقته الفطرية الموروثة إلى عادات عمل مفيدة، واختلاط نافع مع زملائه، ورغم ذلك فما زال السواد الأعظم من الشعوب يتخبط على غير هدى في نظريات الأمن الاجتماعي والعدالة الاجتماعية وسباق الخيل واليانصيب ومعاشات السن المتأخرة وكل أسباب الإثراء السريع وغيرها من الوسائل الآلية التي يتخيلون أنها توفر السعادة دون ألم أو عناء. وطالما حياتنا العامة وطباعنا تتمسك بمستوى المعيشة المادي الخالص وتنفر من المستوى الخلقي المطابق لمبادئ الدين السامية فإن الفساد الذي نرزح تحته سيستمر إلى مالا نهاية.

ولكن كيف يجسر رجل يشتغل بدراسة الشخصيات، وكل خبرته لا تتجاوز أفراداً قلائل أن يصرح مثل هذه التصريحات الشاملة؟

ذلك لأن الأحداث والسياسة القومية ما هي إلا تكرار للحوادث والقيم الفردية؛ فالسياسي الذي يتكلم عن الرفاهية الشعبية هو نفس الرجل الذي عليه مراعاة الرفاهية بين أفراد أسرته. والمواطن ذو الآراء

الخاصة عن السياسة القومية إنما يكشف بها عن نفس مواطن الضعف والبؤس التي تسيطر على معيشته اليومية.

وقد مر بي مئات من الناس في مختلف الأعمار والمراحل، بدأ تاريخ فشلهم في الحياة عندما أخذ آباؤهم يؤدون لهم كل شيء حتى وصل بهم الأمر أن باتوا غير قادرين على اكتساب عادة الاعتماد على أنفسهم. ولقد كانوا يشتهون أشياء كثيرة، ولكن كانت تنقصهم القدرة على إتيان أشياء أخرى كثيرة. كانوا يتصرفون وهم مقتنعون بأن أسراتهم ملزمة بتكييف حياتهم وبتعليمهم، وبتلك الكماليات المترفة التي كانوا يحسبونها ضروريات لازمة.

وهكذا ترى أن الفاصل بين هذا الاتجاه في الأسرة وبين الاعتقاد في أن العالم ملزم في مثل هذا الاعتقاد الخاطئ فهو أن الواحد منهم قد عجز عن اكتساب العادات والأخلاق اللازمة كي يشق بها طريقه في الحياة.

ورغم أني أحمل الآباء المسئولية الأولى في مثل هذه الأحوال إلا أنه لا يسعني إلا الاعتراف بوجود بعض العراقيل التي تعطلهم في مثل ظروف عصرنا المترفة. فعندما كان مستوى المعيشة عند الغني أشد بساطة وأقل رفاهية من فقير اليوم، وعندما كان الأطفال يشتركون في القيام بأعباء الأسرة وقت مبكر، وعندما كانت سنوات الدراسة أقل مما هي عليه الآن، وعندما كانت الكهرباء والسيارات وكل هذه المستحدثات

في طي الغيب، كان تكوين الكثير من عادات العمل وصفات الشخصية الناجعة في المراحل الأولى من الحياة أمراً آلياً بسيطاً لا يحتاج إلى جهد كبير.

أعرف أباً صمم على عدم استبدال مدفأته التي توقد بالفحم بأخرى حديثة تدار بالكهرباء لأنه على حد قوله يستحيل على أن أجد في منزلي ما يكفي من الواجبات التي أسخر فيها ابني البالغ ستة عشر عاماً حتى يتدرب على اكتساب عادات العمل التي يجب أن ينميها منذ نعومة أظفاره؛ فهو قد بدأ يكون مسئولاً عن المدفأة منذ الشتاء الماضي، ولأول مرة في حالته يعتاد على القيام مبكراً من نومه بنفسه والواقع أن الواجب كان شاقاً ثقيلاً ولكنه منه الكثير. ولذا فلن استبدل هذه المدفأة بأخرى تدار بالكهرباء إلا بعد أن يكون قد اعتاد على هذه العملية بانتظام، هذا علاوة على أني أنقده أجرأ لقاء هذا الواجب لم أكن لأمنحه له لم يؤد لي شيئاً.

أما في مثل هذه الأوقات التي يسود فيها الرخاء، حتى أن العمال المتعطلين الذين يتقاضون أجور أمن الحكومة في خلال بطالتهم يمكنهم الإضراب لزيادة أجورهم، أقول إن تكوين عادات العمل الجيدة في مثل هذه الأوقات بات معضلة كبيرة. فالآباء والمدرسة تدلل الطفل، والآباء أنفسهم ينساقون وراء رغباتهم الشخصية، ورجال السياسة يدللون الجماهير. أن كل المزايا المادية لحضارتنا تكاد تتآمر كلها لتجعل حياتنا أشد سهولة وأخلاقنا أشد ضعفاً. ولن تجد غير أذكى الآباء وأكثرهم

إنكاراً للذات من يمكنه التغلب على الأثر الضار السيء لهذه الظروف على أطفاله. ولن تجد غير الأخلاق القوية والعقائد الدينية الصادقة ما يمكنها أن تحمي الآباء أنفسهم من طباع بيئتهم المائعة.

فتلك الرغبة المحببة إلى نفوسنا لندلل أطفالنا ونؤدي لهم كل رغباتهم، بالإضافة إلى الوسيلة المتبعة لتحقيق هذه الرغبات تضرهم ضرراً بالغاً لا يرجى إصلاحه، وهكذا ترى أخطاء الأب لإسعاد طفله تعود على أطفاله ثم إلى أطفال أطفاله، وهكذا حتى تصل الآباء الفقراء لهم ميزة هائلة عن الأغنياء في ميدان تكوين الشخصية، وهذا فقط إذا تمكن آباؤهم من مقاومة المبدأ الضار القاتل بأن العالم ملزم بتدبير أمر معيشتهم وضمانها. فإذا عن لي أن أبدي اقتراحاً واحداً بالنسبة لنظام التعليم الأمريكي لكان هو إرغام كل الأولاد، بين سني الثامنة عشرة والحادية والعشرين، الغني منهم والفقير وخصوصاً طلبة الكليات، على أن يمضوا سنة كاملة في معسكرات رياضية خلوية تسودها روح التقشف.

إن حياة الأسرة هي حياة الشعب، والحياة الغنية بالنسبة للفرد كما هي بالنسبة للشعب المكون من أفراد لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق كفاءته الشخصية والمثل العليا التي يعتنقها. ولن يمكننا الحصول على تلك الكفاءة ولا تلك المثل إذا اعتمد الابن على أبيه أو الأب على ثروته الموروثة أو طبقة من الشعب على ثروة طبقة أخرى، أو من اعتماد الناس عموماً على حكومة تقوم مقام الوالدين. فإذا كان الأب لا يستطيع

توفير السعادة لولده لو أنفق ما يملك، فكيف يستطيع آباؤنا الحكوميون منح السعادة للشعب، مع العلم بأن عطاياهم ومنحهم ليست ملكاً لهم.

ولقد أوصانا الدين بالبعد عن الطمع، ولو أنه يخيل إلي أن كلمة الطمع قد اندثرت فعلاً من قاموسنا اليومي الحديث وحلت محلها كلمات وعبارات أخرى مثل: إعادة توزيع الثروة، وفرض ضرائب على الأغنياء لإعطاء الفقراء، والضرائب التصاعدية، إلى غير ذلك.

وفي مثل هذه الصورة تبدو هذه المعاني المختلفة للطمع في نظر أصحاب المثل العليا العاطفيين – الذين يخافون مواجهة حقائق الطبيعة البشرية ويخشون الظروف القاسية التي تنشأ تحت رحمتها الأخلاق والثروات – أقول تبدو في شكل استغاثة جذابة، وإن كان ضررها في الحقيقة بليغاً.

فالطمع في الحقيقة قضاء على الأخلاق، وعلى ملكة الإبداع والإنشاء فالغلام الذي يطمع في نقود أصدقائه أو يستنزف المال من أسرته إنما يضيع سدى ذلك المجهود والوقت الذي كان يمكنه به أن يتعلم كيف ينشئ ثروته الخاصة به في أي سن كان؛ فالطمع يقتل فينا القدرة على الاستمتاع بالثروة التي نجنيها من الغير، وذلك لأنه يعطل فينا عادات الإبداع والإنشاء ويعرقلها. فليست السعادة في مجرد امتلاك الثروة بل هي في خلقها وتكوينها، سواء كانت هذه الثروة صديقاً أو تجارة، أو بيع الفاكهة أم المناداة على الصحف أم رسم اللوحات أم

الغناء إلى آخره، وحتى الصداقة قال فيها إمرسون: "للصداقة قيمة كبرى لا يشعر بها غير من حرم الصديق، ولذا فثمن الصداقة الحقة هو قدرتك على الاستغناء عنها"

الفهرس